فاتن فاروق عبد المنعم

نـزلاء القصـــر

رواية

الطبعة الأولى سبتمبر ٢٠٢٢

بطاقة الكتاب

عنوان المؤلف	نزلاء القصر
المؤلف	فاتن فاروق عبد المنعم
التصنيف	رواية
رقم الإيداع القانونى	21201 - 2022
الترقيم الدولى	978-977-999-139-9
رقم الإصدار الداخلى	991الطبعة الأولى يونيه 2022
عدد الصفحات	98 صفحة
تصميم الغلاف	مؤسسة النيل والفرات

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلف، ولا يحق لأى دارنشر طبع ونشر وتوزيع الكتاب أو ترجمته أو الإقتباس منه أو نشره على النت الا بموافقة كتابية وموثقة من المؤلف

مؤسسة النيل والفرات للطبع والنشر والتوزيع
ثورة مصرية تشرق إبداعاً على الوطن العربي
رئيس مجلس الإدارة
ناجى عبد المنعم
مؤسسة النيل والفرات للطبع والنشر والتوزيع
أسسها الشاعر ناجى عبد المنعم عام 2017
رخصة مزاولة مهنة:58365 – سجل تجاري: – 13242 / 2017 – بطاقة ضريبية: 35—01—572
عضو عامل باتحاد الناشرين المصريين رقم 941 لسنة 2018
هاتف:01011256943 – 01116202218 – 01202541192 تليفاكس:020554372901
النيل والفرات nagyegy200064@gmail.com
alnilwaalfourat alnilwaalfourat@gmail.com
المقر الرئيسي:ج.م.ع محافظة الشرقية – العاشر من رمضان – مجاورة 13 – أمام سنتر الـ13 – عقار 304

إهـــــــداء

إلى كلّ من غفلنا أو تغافلنا عنهم، إلى كلّ من سحقتهم قسوتنا.

فاتن

(١)

كيانات مهيضة وإن بدت جريئة متفحشة بملامح قاسية، فتلك قشرة زائفة تخفي حقيقة الخوف الدائم والترقب من مجهولٍ مرعبٍ يتوعدهم، ينظرون إلى المارة، يستبطنون داخلهم كأنّهم أغراب، لا يلون على منطقٍ مفهوم، فهم يشعرون أنّهم دون الآخرين في كلّ شيء، كأنّهم حُرِّمت عليهم الحيوات السوية، نشأوا في مرج المروق الدائم، لا يحدّهم الأمن والأمان، في حالة استعدادٍ دائمٍ للعدو كأنّهم في سباقٍ محمومٍ مع مجهول، عيونٌ زائغة، نفوسٌ جائعةٌ تتوق إلى الشبع، تهرول لمن يلوّح من بعيد قلبه مصاب بالران والقفل والطبع، فإن اقتربوا احترقوا دون ارتواء، مُستَخدَمون من آخرين، يقتاتون على أجسادهم لأنّهم في الهامش ولن يعبأ بغيابهم أحد، فكم من أيادٍ مجهولةٍ امتدت إلى كثيرين منهم وهم أطفال، يأخذونهم خلسة، يفعلون بهم كلّ ما ينتقص من إنسانيتهم وآدميتهم، وكم من مِلٍّ مُحرَّم مذكور في كتابٍ مقدس، أو آخرين لا يبتغون بنا خيرًا أبدًا، يربوهم على أعينهم حتى إذا بلغوا مبلغ السعي بدؤوا بغرس مفاهيمَ معينةٍ حتى تمام النضج، لتختلط بعظامهم ويصبحوا بوق كلِّ ناعقٍ بيننا، أولئك الذين هم عالمٌ موازٍ يسكنون الأطراف على الهامش، والهامش دائمًا بعيدٌ عن البؤرة، أي بؤرةٍ، تلك الأسهم التي يطلقها آخرون بخاصرتنا ونحن عنهم غافلون.

زالت مملكة السامري الذي كان يعيّن حكامًا وملوكًا فما زادونا إلّا رهقا، أولئك الذين هم حجتهم كانت داحضة، وظنّوا أنّهم مانعتهم حصونهم،
ولكن شاء الله أن يمضي سيف العزل، بعد أن ملؤوا الأرض ظلمًا وجورًا، وقدّموا للسامري الكثير من الدماء والأنفس، رست السفينة بعد طوفانٍ ماحقٍ، وأُرخِيَت سدول العدل والأمن على حاملي مشعل الهداية، الذين لم يبخلوا بأنفسَ ما لديهم، قربى إلى الله وزلفى، وبنفوسهم الشفيفة وأياديهم البيضاء التي مدوها لكلّ مهيضٍ كسيرٍ، كم اقتيت على دمه وعظامه النخرة، مستعينون بالله على هذا العمل الشاق، فنثروا دعواه في كلّ مدرٍ ووبر، يميطون غلالات الجهل المطبق كي يروا نور الحق المبين.
هنا في بلادنا جلس الرئيس خلف مكتبه يحدّث المجتمعين معه من مستشاريه وخاصته الذين قدّموا له أطروحاتهم لإصلاح الكثير مما هو معطوب، وخُصَّت الجلسة للتباحث في أمر أبناء الشوارع، أصاخ السمع لهم، وهم يدلون بدلوهم، كلٌ يقدّم رؤيته، ثم بادر بالمشاركة معهم فأخذ يطرح عليهم كيفية الارتقاء بأبناء الشوارع الذين هم جندٌ وطابورٌ خامسٌ في آن لكلّ ذي هوى ومأربٍ خبيثٍ فينا، وقد كان السابقون يسومونهم سوء العذاب بالإهمال والاستخدام السيئ الممنهج.
الشارع بكلّ مقتضياته محضنهم الذي يأويهم ويفرز فيهم أخلاقياته وقوانينه القاطعة والحازمة كي يهيموا على وجوههم في بوهيمية إنسان الغاب، في حلٍ وتحللٍ من كلّ

القيم الدينية والمجتمعية، كلٌ منهم كيانٌ ببصمة القسوة الضارية، والتي كانت في مهدهم تنحت باطنهم وظاهرهم كي يخرج علينا هذا المنتج الذي يسوء القاعدة العريضة من المجتمع، هم من عورات السابقين المغلظة وهراواته التي كان يلهب بها الظهور، حتى إذا بلغوا تمام النضج أعادوا تصدير القسوة التي استقوها من قبل في صورةٍ عدائيةٍ إجراميةٍ تجاه المجتمع، إنّهم الأشواك التي تدمي الأقدام، فكيف يتم محو غلالات الأخطاء المتعاقبة والمتراكمة في التعامل معهم؟

الأمر ليس بالهين ولا البسيط، فأكّد الرئيس على أنّ لكلّ فعلٍ رد فعل، ونحن لم نفعل شيئًا بعد.

خلص مستشاروه إلى ضرورة ملء كلّ الفراغات الداخلية لديهم على كلّ المستويات بكلّ ما هو طيب، ببرنامجٍ علمي صارم.

فقال الرئيس: إشباع حاجاتهم النفسية سيعيدهم إلى حوزة الحياة المجتمعية السوية، علينا أن نُشعرهم أنّنا جادون في تعويضهم عمّا فقدوه من قبل قدر المستطاع، فما هي الآلية التي بها نبلغ ذلك؟

يقول المستشارون بالتبادل: بيوت لإيوائهم وتوفير حياةٍ كريمةٍ آمنةٍ شاملةٍ مع برنامجٍ علاجي ونفسي وديني وتأهيلي لهم.

الرئيس يردد ما قالوه: "بيوت لإيوائهم"، كلّا لا أريدها بيوتا عادية بل قصورًا.

صمتٌ مطبقٌ ونظراتٌ مبهمةٌ تحلّق في فضاءٍ أعجمي لا منطق له يحتويهم.
يستطرد الرئيس: قصور وفيلات الطبقة الطفيلية التي استقوت وتوحشت بيد الأنظمة السابقة، سكانها كانوا يأوون فيها كلابًا تعيش حياة مترفة وضنّوا على آخرين فكان الشارع هو مأواهم ومحضنهم، لذا تفتح لهم ليقيموا فيها.
فقال مستشاروه: هذا يُعد من قبيل الجنون، لأنهم سيعيثون فيها الفساد والإفساد، يتم علاجهم وتأهليهم أولًا.
الرئيس: كلّا الإقامة في هذه القصور جزءٌ رئيسيٌ من العلاج، حتى إذا عولج داخلهم وأصبحوا مؤهلين للحياة القويمة انتقلوا إلى بيوتٍ كبيوت الطبقة المتوسطة وحوّلنا هذه القصور إلى مدارسَ ومستشفياتٍ ومكتباتٍ ومسارحَ وقاعاتٍ لممارسة الفنون التشكيلية.
يحاولون استيعاب ما يقول في صمت.
الرئيس: الأصل ليس العيش في قصور، المؤمن يعيش في كرامةٍ دون إفراطٍ أو تفريط، عدالة توزيع الثروة تقتضي انتفاء الهوة والطبقية التي أصّلوها في السابق، جعل السلطة والثروة في يد أفرادٍ معدودين هي فكرةٌ شيطانيةٌ للتحكم في الجموع بالجبر والقهر.
إعلان يتم إذاعته عبر كلّ الوسائط ووسائل الإعلام عن نقاط التجمع والتي تمر بها حافلات تقوم بتجميعهم من الشوارع وأسفل الكباري والأزقة والبيوت المبهمة، وبيوت الدعارة وأوكار المخدرات والمقاهي الخفية بأعمالها المشبوهة والمتسولين وبائعي المناديل والفل في المواقف والطرقات

والمشردين والمتسولين، منهم من يهرب خوفًا من فقد حريته، أو بوهيميته التي تتيح له التفسخ بكلّ أنواعه فلا ينفرط عقد تفحشه الذي يرطب داخله أو الذي يشعره أنّه يقتنص شيئًا ما رغمًا عن تلك الوجوه التي تنضح بالشبع بكلّ أنواعه، رغم التأكيد على أنّهم يقفون بجانبهم وفي صفهم، فإنّ هناك الكثيرين منهم يتهربون من الالتزام بحياةٍ منظمةٍ نظيفة، إنّه المجهول الذي يخافون الدخول في فسطاطه.

الإعلان يذاع بصفةٍ دائمةٍ مع التأكيد على أنّ من يأتي طواعية خلال شهرين لن يُجرَّم مهما فعل وبعد الشهرين سيتم توقيفه والتعامل معه في شريحةٍ أخرى وهم المخالفون الواجب التعامل معهم قانونيًا.

فُتِحَت القصور التي بنيت في السابق بأموال هذا الشعب لأولئك الذين كانوا يتنازعون مع الكلاب الضالة لاقتسام الطعام الملقى بصناديق القمامة.

قصرٌ منيفٌ بسورٍ عالٍ منيع، يتصدره أعمدةٌ رومانية برخام وردي تفضي إلى بهوٍ فرعوني قصيرٍ ثم بوابةٍ حديديةٍ كبيرةٍ مُطعَمةٍ بالصدف، تفتح لاستقبالهم ممن احتبسوا أنفاسهم لرد فعل هؤلاء عند دخولهم هذا القصر المكتظ بالتحف والبايوهات والتابلوهات والأثاث المتنوع بين الفرنسي والإيطالي، والإضاءة الكلاسيكية والحديثة، الطابق الأرضي به غرفتا مكتب مغلقتان لن تُفتحا لهم، في المقدمة منضدة مستديرة متوسطة الحجم عليها فازة عريضة بها زهورٌ

صناعية، ثم فسقية متوسطة الحجم بمائها، ثم أنتريه بجانبه آخر،
ثم صالونٌ كبيرٌ بكونسولٍ ضخمٍ فخيم، حجرتا سفرة، وحجرتا صالونٍ وأنتريه، مطبخ كبير وثلاثة حمامات، ثم الدور العلوي وبه ثماني حجرات نوم، ملحق بكلّ حجرةٍ حمام، ردهة كبيرة بها أنتريه مضاعف الحجم ومطبخ كبير ملحق بالأنتريه، السجاد فخيم تنوع ما بين الحرير والشينواه والصوف، والفازُ الكبيرات من البورسلين منثورات في مواضع شتى من الأركان.
وما أن رأت عيونهم جمال القصر وحصونه ومنعته حتى انطلقوا كوحوشٍ كاسرةٍ أو كإنسانٍ سيق من عمقٍ سحيقٍ في أرشفة التاريخ، كان يناطح الحيوانات في سكنى الأشجار والخصف بأوراقها فكسّروا وخرّبوا وأفسدوا جمالها الرتيب المرتب وامتلأت الردهات والباحات والغرف بكسور الفاز والتحف والزجاج والعبث باللوحات، كأنّهم تجسيدٌ فعلي للحرمانٍ بكلّ أنواعه، صاغته كياناتهم المهيضة والتي كانت موعودةً بالإهمال العمد أو الإعداد العمد لكي يكون هذا تكوينهم النهائي.
يصاحب فعلهم صرخات وأصوات الفحش والتفحش وسيئ المفردات والحركات وتعبيرات الملامح غير البريئة والتي استقت من كلّ مشارب الفجور، كأنّهم يفرغون جعبتهم الثريدة الثرية بكلّ ما هو سيئ، أو كأنّ هذه هي تيمتهم وشيمتهم التي هم عليها.

بعد الانتهاء من نوبة التخريب، قالت (سمر) المشرفة بعد أن عملت مسحة بعينها على مفردات القصر فأخفت فزعها من هول التخريب، هي أربعينية تتميز بالهدوء والكياسة عملت أخصائية نفسية في أماكن شتى:

كل اثنتين في حجرة، كلّ أمٍّ لديها من طفل فأكثر سيكون لها حجرة أو حجرتان مفتوحتان على بعضهما حسب عدد أطفالها، ملحق بكلّ حجرةٍ حمام، قبل الطعام سندخل الحمام للاستحمام، في غضون ساعةٍ تنتهون من الاستحمام والذي يبدأ برش رؤوسكن بهذا الدواء للتخلص من حشرات الرأس، ثم ننتظم حول الموائد لتناول الطعام، كلّ عشرةٍ لهم مشرفةٌ وطبيبةٌ وأخصائيةٌ نفسية.

همهمات وأصوات مختلطة وأمهات يسألن عن أبنائهن الذين بلغوا الحلم، وكيف ستمضي بهم الأيام، قطعت (سمر) هذه الأصوات المختلطة بقولها الاستحمام ثم الطعام ثم الحديث المفتوح في كلّ شيءٍ دون قيدٍ أو شرط، في كلّ حجرةٍ ملابس مؤقتة لحين أخذ مقاس كلٍ منكن كي نأتي بالملابس التي تناسبكن وأبناءكن.

عند انتهاء الساعة استمعن من خلال المايك المنتشر في كلّ الأرجاء، "لننتظم حول الموائد الآن".

كلّ مشرفةٍ وطبيبةٍ وأخصائيةٍ نفسيةٍ جلست مع عشرة المعنيات بهن حول المائدة التي أعدها شيفٌ من خارج القصر جاء بالطعام لهن.

صوت المايك يصدح: فلنبدأ الطعام (بسم الله الرحمن الرحيم)، نأكل بهدوءٍ وتركيزٍ والفم مغلق، ولا تملئي فمكِ

بالطعام ولا يتساقط من فمكِ، فلتكوني أميرة بسلوككِ، وعند الانتهاء من الطعام نقول: "الحمد لله".
اصطففن حول الموائد، ما زلن حديثات عهدٍ ببوهيميتهن، والتي تسوسهن بمقتضياتها من المفردات والأصوات وطريقة الحديث، وأسلوب تناول الطعام.
يقف الشيف ومساعدوه يلبون حاجياتهم، رائحة الطعام بنكهةٍ باعثةٍ على الالتهام تغشى أنوفهن فتتسابقن على الأطباق الرئيسية لملء أطباقهن خوفًا من النفاد، فتقوم المشرفات بطمأنتهن أنّ كلّ طلباتهن مجابة فلا داعي لهذا التسابق المحموم.
تنتابهن بعض الطمأنينة وتتخلل مسامعهن إرشادات وآداب الطعام:
الأكل بهدوءٍ وتأني، لا تتمطقن، الفم مغلق، ولا تملئي فمكِ بالطعام، لا تتحدثي والطعام في فمكِ.
فضاء الحجرة تشبع بأصوات أدوات المائدة، ممزوجة بكلّ المنهي عنه من قبل المشرفة، فما اعتدن عليه تغلّب.
بدت عليهن أمارات النظافة والارتياح والشبع الذي أورثهن الاطمئنان المشوب بنقيضه، ولكنّ الوجوه مازالت ممهورة بالشمس التي ترافقهن منذ افتراشها الكون وحتى غيابها، وسحنة تحين الفرص للانقضاض على أيّ شيءٍ وكلّ شيءٍ ما استطعن إلى ذلك سبيلا، العيون زائغة خائفة تترقب، تدور في كلّ مكانٍ مخافة رد فعلٍ غير مُرضٍ خاصة وأن أفعالهن كلّها غير مرضيةٍ دائمًا.

كلّ مشرفةٍ دعت عشرتها إلى قاعة السينما، بدت عليهن سعادة من نوعٍ ما لأنهن سيشاهدن فيلمًا وقد يتاح لهن اختيار الفيلم، ولكن ماذا إن لم يخترن الفيلم وفُرِض عليهن ما لا يفضلنه؟

دارت أحاديث جانبية بينهن بأنّه ينبغي أن يفرضن رأيهن وعلى المشرفة أن تستجيب.

انتظمن في القاعة، أُطفِئَت الأنوار وبدأ العرض، لم يكن فيلمًا وإنما فيديو يعرض القصر بمحتواه قبل أن يحضرن لسكناه، مع صوتٍ يشرح تاريخ بنائه ومن كان يسكنه، وصور لهم مع مقاطع فيديو تظهر ما كانوا عليه من سمت، القصر فخيم، نظيف، مرتب، يفوح منه عبق الماضي وسير الذين كانوا يسكنونه، ثم فيديو آخر يعرض القصر بعدما ناله من التخريب والوسخ ما ناله.

أُسدِلَ الستار على الشاشة الكبيرة وأُضِيئَت الأنوار ووقفت (ابتسام) أستاذة علم النفس بكلية الآداب أمامهن تنظر إليهن في صمتٍ مُحاوِلَة أن تستشف ما بهن وما يُعتمل لديهن من انطباعات، ثم قالت: ما رأيكن؟

صمت أعجمي بعلامات استفهام كثيرة.

هل القصر قبل مجيئكن أفضل أم بعد مجيئكن؟

قالت إحداهن وهي تبتسم كأنّها تمزح بيد أنّها جادة فيما تقول: نحن وسخات تربين بالشارع.

قالت دكتورة (ابتسام): لا، بل أنتن بضعة منا وأهلنا ولحمنا ودمنا نحمل لكم الخير كلّ الخير، وسوف نأخذ بأيديكن حتى تبلغن مرقى الصالحين النافعين داخل مجتمعنا.

تقول إحداهن امتهانًا: لا يوجد نقيصة أو خطيئة لم نفعلها، بل نحن عجينةٌ لخليطٍ من الخطايا.
دكتورة (ابتسام): ولو...، كلّ شيءٍ قابل للعلاج والتحول لو امتلكنا الإرادة والعزيمة وقبل هذا وذاك التوبة والصدق مع الله، ورغم كلّ ما حدث للقصر فهناك نقطة إيجابية جدًا أنتن لم تنتبهن لها.
صمت ممزوج بهسيس وهمس لا تستبين مفرداته.
واصلت المشرفة: النفس جُبِلَت على حبِّ الجمال بدليل أنكن مأخوذات بما حدث وعلى وجوهكن أمارات الأسف، حتى ولو كنتن الفاعلات، ولكنّ النتيجة السيئة لا ترضيكن.
تُرى ما الذي يجب عليكن فعله؟

- قالت أخرى تهكمًا: ننظفه؟
- الدكتورة (ابتسام): ولِمَ لا؟ أليس هذا المكان هو الذي ستعيشن فيه؟ لماذا تعشن في مكانٍ متسخ؟ لماذا لا نحرص على بقائه جميلًا نظيفًا دائمًا؟
- قالت إحداهن في مبتدأ عقدها السابع رضوخًا لما يمليه الواجب: علينا تنظيفه وإعادته كما كان.
- الدكتورة (ابتسام): هو ذاك ما ستفعلونه الآن.

العيون شاخصة تحدق تنتظر ما يستجد.

- الدكتورة (ابتسام): أود أن أسمع رأيكن.

.....

- الدكتورة (ابتسام) تقطع وصال الصمت وتقول: هنا أنتن من ستقمن بتنظيف القصر بصفة دائمة وليس اليوم فقط، سنقوم بتوزيع المهام حسب سن ومقدرة كلٍ منكن، حتى الطعام أنتن من ستقمن بإعداد الطعام، بتقسيم العمل وتوزيع المهام أيضًا.

قامت المشرفات بتقسيم العمل حسب العمر والحالة الصحية، ولكن يظل العمل هو ديدن القيمة الواجب اعتناقها حتى ولو كان تلميع أو إعادة ترتيب الأشياء التي فقدت تنسيقها.

وقفن الطبيبات والمشرفات يراقبن محو آثار نوبة التخريب وهن من التزمن الصمت المطبق حتى يخرجن ما علق بهن، فالماعون الذي فسد محتواه

وجب التخلص من هذا المحتوى وتنظيفه تمامًا لكي يستقبل الجديد الصحي الصالح للاستخدام، أجدن تقسيمهن إلى فئاتٍ وشرائح.

في جعبتهن الكثير مما يعيدهن إلى جادة الصواب، منها التعليم مهما كان عمرهن، إلزامي ومتنوع ومتدرج حسب عمر كلٍ منهن، والبرامج التأهيلية تتنوع ما بين أفلامٍ تسجيليةٍ ووثائقيةٍ ودراميةٍ أو محاضرات، والترفيه والجوائزَ المتنوعة والمتدرجة لا تنتهي حسب قدرة كلٍ منهن على الالتزام والتحفيز المستمر.

يرافق هذه الاجراءات العلاج من الإدمان وهو الغالب عليهن، وإجبارهن على أداء الصلوات المكتوبة والتدريب على الصيام الذي كان شاقا جدًا على أغلبهن وإن أبدين

الضيق والضجر، وكان شيئًا ثقيلًا على نفوسهن التي مردت على كلّ فعلٍ يحبّذه الشيطان.
تحوّل القصر إلى خلية نحل، قمن بالتنظيف والتلميع وأعدنه إلى ما كان عليه من قبل، ثم حضر فريقٌ طبي آخر واجتمع بهن في قاعةٍ للاجتماعات بالقصر لأخذ عيناتٍ منهن وعمل تحاليلَ وفحوصات، على رأسها تحليل دي إن إيه لمحاولة معرفة آباء الأبناء فإن فشلوا نسبوهم إلى أسماءٍ وهميةٍ لاستخراج شهادات ميلادٍ وبطاقات رقمٍ قومي.
سكن القصر مجموعتان، الدور الأرضي يتم النزول إليه بسلالمَ داخليةٍ به مطبخٌ كبيرٌ وغرفة الغسيل وحمام وغرفتا نومٍ شاغرتان الآن، كانوا من قبل للشغالات والسفرجي والسائق، مفصول عنهم جراجٌ بابه يفتح على حديقةٍ غناء فسيحة ملحق بها صالة ألعاب رياضية تعلو قاعة السينما.
الطبيبة (أسماء)، وهي طبيبة شابة ذات الاثني وثلاثين عامًا تتبادل النوبتجية مع زميلتها الطبيبة (عائشة) والتي تماثلها في العمر، بحيث يتم تواجد طبيبة بصفةٍ دائمةٍ طوال اليوم وكذلك ضابطة الشرطة بزيها المميز المقدم (جيهان) والتي تتبادل النوبتجية مع المقدم (حنان)، فلا بد من تواجدٍ دائمٍ لضابطة الشرطة.
الدكتورة (سندس) أستاذة بكلية الدراسات الإسلامية تتبادل النوبتجية مع الدكتورة (نرمين) الأستاذة بنفس الكلية، لتعليمهن صحيح الدين وإمامتهن في الصلاة وإلقاء الدروس الدينية عليهن يوميًا وليجبن على أسئلتهن.

الاجتماع للمجموعتين في قاعة السينما والحديث مفتوح يغلب عليه المكاشفة، البوح بأعراض المرض كي يسهل التشخيص ومن ثم العلاج.
مجموعة الدكتورة (ابتسام)، والمشرفة (سمر) يجتمعن بمجموعتهن، عائلة (فوزية).

- الدكتورة (ابتسام): هنا الحوار مفتوح وممتد دون حرج، فلا خجل ولا خوف مما فعلتن في السابق، بل إن دورنا هو الأخذ بأيديكن إلى بر الأمان، كّل واحدةٍ منكن تعرف نفسها ونشاطها وماذا كانت تعمل في السابق

وما الذي تراه أو تعتقد بأنّه كان من أخطائها الواجب التخلص منها، هل حاولت وفشلت أم أنّها كانت ماضية غير مهتمةٍ بما تفعل هل هو صحيح أو خطأ؟

- (سمر): نبدأ بمن؟ نعيد عليكن لا خوف ولا حرج، المكاشفة والمصارحة هي البداية الصحيحة، من ترغب في التحدث فلترفع يدها، وأول دروس اللياقة وأدبيات الحديث أن تجيد التعريف بنفسها، اسمها وسنها ومكان النشأة وكيف انتهى بها المآل إلى ما هي عليه الآن، مع مراعاة أن تخاطبنا بقول حضرتك...، من فضلك...، الحديث بصوتٍ خفيض، لا هو خافتٌ فلا نسمعه ولا هو عالٍ كأنّك تخاطبين شخصًا بعيدًا.

ألا نقاطع بعضنا ونجيد الإنصات وإعطاء الفرصة للمتحدثة ومهما كان اعتراضك فلتنتظري حتى تأخذي فرصتك في

الحديث، وليكن لدينا سعة صدرٍ وعدم معايرة بعضنا البعض، وعدم النبش في جروحٍ وأوجاعٍ بعضنا.
مثل هذا السلوك فضلًا عن كونه حرامًا فهو من قبيل التدني ومحاولة يائسة لمعالجة عقد ومركبات نقص.
التخفف من لغة الجسد خاصة التعبير بملامح الوجه والإيماءات الكثيرة؛ الواثق من نفسه وبمعنى أدق الصادق في حديثه ليس بحاجةٍ لمثل هذه الأشياء، صدقه يكفيه، الصدق في كلّ شيء.
صمت مترقب يرتفع في فضاء القاعة وكلهن متهيبات رغم أنّهن عاريات الفعل لبعضهن البعض، ولكن التعري الكامل أمام هذا الجمع، كلٌ منهن على حدةٍ أمرٌ يُعد شاقًا خاصة عند الوقوف على نقطة البداية.
ترفع إحداهن يدها لتتحدث: أنا (فوزية) عمري ثلاثة وستون عامًا، من المنيا، قُتِلَ أبي في حادثة ثأرٍ لعائلةٍ أخرى وأمّي ماتت وهي تلد أختي الصغرى، لي أخانِ وأختان أنا أكبرهما، قامت جدتي لأبي على رعايتنا، كنت متمردة على كلّ شيء، أذهب إلى الآثار لأتفرج على السياح كي أمتّع نفسي بالدهشة والانبهار، كان عمري ثلاثة عشر عامًا، وبدأت أمارات الشباب في الظهور عليَّ، أحد الحراس تتبعني بنظراتٍ جديدةٍ عليَّ، ألفتها دون أن أعرف ماهيتها، كنت أعتبر هذا نوعًا من الاهتمام بي والذي أفتقده، تطورت نظراته لي إلى لمس جديدي الذي لا أقربه أنا، فتّح وعيي على ما أجهله، فألفت ما هو أكثر من النظرات، تحسسه واحتضانه وتقبيله لي، فكان بمثابة إدمانٍ يفوق كلّ أنواع الإدمان، همَّ بما هو أكثر

ولكنّي تهربت منه مراتٍ ومرات؛ لم أكن أريد أكثر من أحضانٍ وقبلات، أكثر من هذا يعرضني للخطر، ولكن كثرة الحوم حول الحمى أوقعني فيها، فألفت مضاجعته والتي مثّلت لي قمة المتع حتى شعرت بشيءٍ غير عادي حدث لي، أدركت أنّي حامل فهربت في القطار المتجه إلى القاهرة، وبدأت رحلة اللاعودة، من التسول إلى بيع المناديل والبيات بالشارع تحت الكباري، وبجانب الجراجات وبجانب أكشاك السجائر.

- دكتورة (ابتسام): هل استمر الحمل؟
- نعم، ولكنّه مات.
- (سمر): كيف مات؟

كان عمره أسبوعًا، تركته في صندوقٍ بجانب كشك السجائر وذهبت لأشتري ساندويتش فول، عدت لأجده في فم كلبٍ وكان قد أكل أغلبه.

- دكتورة (ابتسام): هل أنجبتِ غيره؟

أنجبت خمسة من كثيرين لا أعرف من منهم ابن من.

- (سمر): أين هم؟

لهم حياتهم، منهم تاجر المخدرات ومنهم الناضورجي، وثلاث بنات معي هنا بأبنائهن.

- دكتورة (ابتسام): هل تزوجوا؟ أم عاشوا بنفس الطريقة.

عاشوا بكلّ الطرق، زواج ودون زواج، في عشش بالعشوائيات في أطراف القاهرة.

أنا (سلوى) ابنة (فوزية) الكبرى وشهرتي سنجة.

- (سمر): ننسى اسم الشهرة، اسمك (سلوى) فقط، هذه بداية جديدة تمامًا.

عمري ثمانية وأربعون عامًا، عندي أربعة أبناءٍ ذكورًا، تزوجت وعمري سبعة عشر عامًا، وسكنت في منطقة العشش المفتوحة على بعضها، عشش بالصفيح بابها ستار من البلاستيك السميك من السهل إزاحته باليد، كلنا يعمل نهارًا، أرزاقية وشغالات بالبيوت والمحلات، ونعود قبل المغرب، ليلًا نشرب المخدرات ثم لا يتقيد رجلٌ بزوجته، كلٌ يدخل أيَّ عشةٍ ويضاجع أيَّ امرأة، تركت التعليم في الصف الثاني الإعدادي، أبنائي منهم الحاصل على الإعدادية ومنهم الحاصل على الدبلوم، يعملون في أيِّ شيءٍ وكلِّ شيء.

أنا (أميرة) عمري خمسة وأربعون عامًا، عندي ثلاثُ بنات، معي هنا، تركت التعليم بعد الابتدائية، بناتي حصلن على الدبلوم، والثلاثة يعملن في بيت دعارة، وصاحب البيت يأكل عرقهن، لا يعطيهن الكثير.

أنا (نشوى) عمري أربعٌ وأربعون سنة، لم أحصل على الابتدائية، لم أنجب، أعمل بالدعارة.

أنا (ليندا) ابنة (أميرة) عمري ثمانٍ وعشرون سنة، حاصلة على ليسانس آداب، ولي ولدان توأم عمر كلٍ منهما أربع سنوات، تزوجت واحدًا من سكان العشش لكن لا أستطيع أن أجزم أنّه أبٌ لأبنائي.

أنا (شرين) ابنة (أميرة)، عمري خمسٌ وعشرون سنة، حاصلة على ليسانس حقوق، عندي بنت عمرها سنة.
أنا (مروة) عمري ثلاثٌ وعشرون سنة، حاصلة على معهد خدمة اجتماعية، لم أتزوج.
المجموعة الثانية مع دكتورة (هدى) أستاذة علم النفس بكلية الآداب، والمشرفة (هند)، توجهتا بالحديث بنفس الأريحية والترحيب ودعوتهن لتقديم أنفسهن بأسمائهن الحقيقية وليست أسماء الشهرة، مع التأكيد على عدم ذكرها ومحوها تمامًا.

- **أنا (كوثر) عمري ثمانية وخمسون عامًا، وُلِدت بالسجن، أبي وأمّي كانا تجار مخدرات، كلّ من له جارُ سوء، ضرةٌ مستقوية، أو واحدة ترى نفسها يكتريني لضربها، والحكومة كانت تُحضِرني أيام الانتخابات لنفس الغرض، أجيرة لمن يدفع، تزوجت أول مرةٍ وعمري سبعة عشر عامًا، أنجبت منه ولدين، كان لصًا والحكومة قبضت عليه، دخل السجن لتنفيذ أحكام متراكمةٍ؛ خمس وثلاثين سنة، طلبت الطلاق وتزوجت للمرة الثانية معلمًا كبيرًا في الباطنية، كان صبيًا عند أبي، أنجبت منه بنتين ثم تزوج عليَّ بأخرى (شايفة) نفسها فطلبت الطلاق وتزوجت بآخر كان عاطلًا طامعًا فيَّ وكنت أنفق عليه، قطيعة تقطع الحب الذي أعماني، طوال الليل يشرب وطوال النهار نائم، أنجبت منه بنتًا، قرفت من أمّه وطلبت الطلاق.**

(هند) تتحفظ على مفرداتها وطريقتها في التعبير بملامح الوجه والجسد والذراعين فأعادت عليهن التعليمات آنفة الذكر.

- (كوثر) تتمطق وتقول بصوتٍ مشبّعٍ بكل أنواع الدخان البريء منها وغير البريء: لن نتغير في يوم وليلة، الصغار سريعو الاستجابة، أما أنا عظمةٌ ناشفةٌ لن يجدي معي أيُّ كلامٍ يا أبلة (هند).
- (هند) تعترض فتقول: كلُّ شيءٍ بالتعود يصبح سهلًا، ونحن هنا نرشدكن للأفضل وهو ليس مستحيلًا.
- أنا (نجلاء) ابنة (كوثر)، عمري خمسة وثلاثون عامًا، حاصلة على الدبلوم، أعمل عند من ترغب في التمتع بجسمي، أنا وأخوتي نمتهن نفس المهنة هروبا من مشاكل معاشرة الرجال، سيرة وسمعة سيئة وأنت كما ترين أمّنا كانت تتزوج.
- تقاطعها أمّها وتقول: إلا الحرام كله بالحلال.
- تعترض الدكتورة (هدى) على مقاطعتها لابنتها والتأكيد على إعطاء كلٍ منهن فرصتها في الحديث.
- تستطرد (نجلاء) وتقول: تزوجت بعد حصولي على الدبلوم وأنجبت بنتين؛ (جودي) و(مايا)، اثنتا عشرة سنة، وعشر سنوات، ولكنّه رفض تلبيتي لمن ترغب في الاستمتاع بجسدي وطلقني.
- أنا (أمنية)، عمري أربعة وثلاثون عامًا، ابنة (كوثر)، تزوجت بعد حصولي على الدبلوم، أنجبت بنتا وولدًا وطلقني أيضًا لأنه رفض العمل في تلبية

رغبة من تريد الاستمتاع بجسدي، رغم أنه باب رزق.

- أنا (أماني)، عمري ثلاثون عامًا، ابنة (كوثر)، أعمل في تلبية رغبة من تريد الاستمتاع بجسدي، لم أتزوج لأني لا أطيق أن يقربني رجل، لا أحب سوى النساء.
- أنا (سونيا)، عمري ثمانية وعشرون عامًا، لم أحصل على الابتدائية، عندي بنتان: (نور) و(منة)، اثنتا عشرة سنة وثماني سنوات، لا أعرف الأب الحقيقي لكلٍ منهن، لا أعمل، أتنقل من هذا لذاك مقابل أجرٍ مادي أو عيني، لا أعرف أين والدي، نشأت عندَ المعلمة في الحوش الكبير، تأوي مثلي الكثيرين، أولادًا وبناتًا، يعملون في السرقة والتسول، هي من علمتني النشل وفشلت، هربت منها واكتفيت بالعمل مع نفسي، جسمي الذي لا أملك غيره.
- الدكتورة (ابتسام): أهلا بكن جميعًا، بداية جديدة لحياةٍ جديدةٍ أيضًا، نزيل معًا أدران الماضي الأسيف، نأخذ بأيديكن كي تعبرن الطريق وتصلن إلى بر الأمان.
- الدكتورة (هدى): لديَّ سؤالٌ سيترتب عليه الكثير، هل تشعرن أنّكن مظلوماتٌ، والظروف هي من شكلتكن حتى بلغتن هذا المنعطف؟
- (نجلاء): هل ترين غير ذلك؟
- (شرين): لو تغيرنا هل سيقبل بنا المجتمع؟ أم سيظل ماضينا يطاردنا؟!

- الدكتورة (هدى): أجبتن على سؤالي بأسئلة، لكن لا بأس، هنا الحوار مفتوحٌ وممتد.
- الدكتورة (ابتسام): نود أن نصحح مفهومًا ليكون الأساس الذي نبني عليه جميعًا، دائمًا نضع نصب أعيننا ما هي علاقتنا بالله؟ كلّما أقدمت على فعلٍ ما أول ما ينبغي أن يتطرق له ذهني، هل ما أفعله سيرضي الله أم لا؟
- (أماني): لكننا نعيش بين الناس الذين نراهم، ولم نر الله.
- (هند): ألا تؤمِنَّ بالله؟
- صوتٌ جماعي: بلى، نؤمن بالله.
- (سمر): فكرة الاشتغال على رضى الله بالأساس كي تُرِحن قلوبكن، هؤلاء الناس مخلوقاته، طوع بنانه، وهو من يوجههن لحبّ ذاك وبغض ذاك، وعلى قدر مكانتكِ عند الله تكون مكانتكِ بالقلوب، حتى من يبغضكِ لسببٍ ما، يبغضكِ ولكنّه يهابكِ ويعرف قدركِ وقيمتكِ.
- الدكتورة (ابتسام): عندما نقول لَكُنَّ، لا تشغلن أنفسكن بغير رضا الله فإننا نضعكن على بداية الطريق الصحيح والذي به تنصلح كلّ أموركن.

ترفع (كوثر) يدها، تشير إليها الدكتورة (ابتسام) لتتحدث،

- فتقول: لديَّ سؤالٌ دون أن تفهموني خطأ، ألسنا جميعًا خلق الله؟ لماذا بعضنا ثري وفي متناول يده كلّ شيء، الدنيا مفتوحة لهم من كلّ جانب بينما نحن

الدنيا تعطينا ظهرها دائمًا والكل ينظر إلينا على أننا لا قيمة ولا وزن لنا، يفعلون بنا ما يشاؤون دون حسيبٍ أو رقيب؟ الله عادل لا شك في هذا لكنّنا ظُلِمنا وديست رؤوسنا بالأقدام.

- (سمر): أنت تتحدثين من وجهة نظركِ أنتِ وهو أن الآخرين ليس لديهم مشاكل، بل لديهم المشاكل والأمراض والأوجاع والهموم التي تنوء بحملها الجبال، حتى المتجبرين أو الظالمين لديهم من المشاكل ما تنوء بحملها الجبال لأنّهم يعيشون في الدنيا التي تعيشين فيها والتي هي بالأساس كانت عقوبة لآدم لأنّه عصى الله، هنا لا قرار ولا استقرار.
- الدكتورة (ابتسام): لا ننكر حقكم في الحياة الكريمة الآمنة بكلّ ما تعنيه ولكن دائمًا مطلوبٌ منَّا جهادَ النفس، بمعنى ألّا نستسلم لنداء الشيطان.
- (ليندا): شيطان، لم نعد بحاجةٍ لنداء الشيطان لأنّنا أصبحنا شياطين بالفعل، كلّنا يجيد أكثر مما يأمل الشيطان، لم يأخذ أحدٌ بأيدينا.
- (سمر): هذا ركونٌ للعيش في دور الضحية، وهذا في حد ذاته ينسف أيَّ جهودٍ تُبذل تجاهكم.
- الدكتورة (هدى): سؤالي مازال معلّقًا في الفراغ لم يجب عليه أحد، هل تشعرن أنكن مذنباتٌ أم مظلومات؟
- (فوزية): نحن مظلوماتٌ دفعتنا الظروف إلى ما نحن فيه.

- **الدكتورة (ابتسام): هذا مصداقٌ لقول (سمر) ينسف أيَّ جهودٍ تُبذل تجاهكم.**
- **(أميرة): نحن وُلِدنا في الخطيئة، فكيف نرتدي ثوب الطهر؟**
- **(سمر): كثيرون يتعرضون للظلم والقهر والظروف التعسفية، لكنّهم يقاومون ويتجلدون حتى يقهروا الظروف ولا يصابوا بالذلل.**
- **(سلوى): هل هذا تكديرٌ ومحاسبة؟**
- **الدكتورة (هدى): لا، بل مكاشفة كي نبدأ معكن البداية الصحيحة، أيّ إنسانٍ لو ظلّ يبرر لنفسه السباحة في بحر الخطيئة لأنّه مظلومٌ والظروف هي التي دفعت به كي يبلغ هذا المرفأ، سيظل مخطئًا للأبد، البداية الصحيحة هي أن تديني نفسك وتجلديها، وتعملي لنفسك كشف حسابٍ وتلومي نفسك، لأنّك في مواضعَ معينةٍ كان من الممكن أن تتوقفي عن إكمال المسير في طريق الشيطان، ولكنّك استمرأت الوضع الذي أنتِ فيه، لأن الطريق المعاكس شاقٌ ومليءٌ بالأشواك، أليس كذلك؟**
- **(نشوى): وماذا علينا فعله الآن؟**
- **(هند): كلّ نفسٍ بها من الفجور كما بها من التقوى، هذه هي النفس البشرية التي خلقها الله، كلّ نفسٍ وليست لأحدٍ بعينه،**

- دورنا معكن هو تغليب التقوى على الفجور مع وجود إرادةٍ قويةٍ داخلكن للتغيير، ودون ذلك فلن نبلغ هذه الغاية.
- (سمر): هل لديكن أية أسئلة؟
- (كوثر): هل سنعيش هنا بصفةٍ دائمة؟

ضحكت المحاضرات، ثم قالت الدكتورة (ابتسام): وهل نحن نعيش في قصور؟!

الدكتورة (هدى): بالطبع لن تعشن هنا بصفةٍ دائمة، كان من المفترض أن تعشن في مجمعٍ أشبه بالمستشفى النفسي حتى يتم تأهيلكن للحياة بين النَّاس مرةً أخرى، ولكنّ القيادة السياسية على رأسها الرئيس ارتأى فتح القصور والفلل والبيوت الفخيمة لكم حتى يتم تأهيلكن جميعًا ثم تخرجن للمجتمع قوىً منتجةً وعاملة.

ومن لا يقوى على العمل لكبر السن أو ظروفٍ صحيةٍ سيكون له معاشٌ يكفيه ليعيش بكرامةٍ في بيوتٍ خاصةٍ لكلّ أسرةٍ كما كلّ الأسر، وكلّ أسرةٍ ستكون لها متابعةٌ دوريةٌ من مكتب الشئون الاجتماعية الخاص بالمنطقة التي تسكنون بها وسيكون على تواصلٍ دائم معكم، سيقومون على رعايتكم جميعًا رجالًا ونساءً وشبابًا وأطفالًا.

- (سونيا): لي سؤالٌ قد تتحرج الكثيرات منه لكن سأبوح به، الإدمان بدأنا في العلاج منه، والجنس كيف سنتغلب على رغباتنا، المعتدل منها والشاذ كما يُقال، هذه أيضًا متطلباتٌ جسديةٌ لا يمكن تجاوزها؟

- الدكتورة (ابتسام): أحييكِ على هذا التساؤل، لأنه مناطٌ هامٌ وحيوي، بالطبع الطبيبة النفسية لديها برنامجٌ تأهيلي علاجي كاملٌ من كلّ الأوجه، ونجاحه يعتمد على رغبةٍ قويةٍ داخلكن بالتغيير للأفضل ودون ذلك لن ننجح.
- (سمر): عندما بدأنا الحديث معكن قلنا لَكُنَّ شيئًا هامًا جدًا، علينا الاشتغال على فكرة علاقتنا بالله، وهذا يعتمد على تدريب النفس وإشغالها بكلّ ما هو مفيد، وهذا هو البرنامج الذي صممناه لاستيعابكن، نبدأ اليوم بصلاة الفجر، بعد الصلاة درسٌ ديني لمدة ساعة، ثم التريض لمدة ساعةٍ أخرى، تتنوع ممارسة الرياضة من مختلف الألعاب وحتى السير المتمهل لكبيرات السن في حديقة القصر، ثم ساعة للإفطار، إعداد وتناول، من التاسعة وحتى الثانية عشرة "مدرسة" لَكُنَّ جميعًا، هي ليست مدرسةً تقليدية، بمعنى كلّ فئةٍ سيتم التعامل معها، الثابت هو لا بدَّ من تعلم القراءة والكتابة للجميع، ومن يُجدن القراءة والكتابة، ومن حصلن على شهاداتٍ ما، سيتم عرض فيلمٍ تسجيلي أو درامي لهن، أو محاضرة تتناول موضوعًا بعينه، وسيتم طرح أسئلةٍ مكتوبةٍ فيما يتعلق بالموضوع المطروح، وإن أخفقتن يتم إعادة الطرح بصيغٍ وأشكالٍ مختلفةٍ حتى يتم هضم الفكرة.

الأطفال في سن المدرسة سيذهبون إلى المدرسة التقليدية بباصٍ في الذهاب والإياب، من الثانية عشرة وحتى الرابعة

تجهيز الغداء وتناوله ومن ترغب في القيلولة، من الرابعة وحتى التاسعة تعلم مهاراتٍ ومهنٍ للاشتغال بها فيما بعد، يوم الجمعة إجازة، فقط من العاشرة وحتى الثانية عشرة محاضرة في تهذيب السلوك واللياقة واللباقة، بقية اليوم تفعلن ما ترغبن، شرط عدم التجاوز.

- (أمنية): هذا سجنٌ ناعم.
- (هند): نحن نأخذ بأيديكن؛ السجن يقضي على إنسانية الإنسان وغايتنا هي تقويم الإنسان وتصحيح مساره.
- (ليندا): لم تذكري خروجنا في رحلاتٍ خارجيةٍ مطلقًا.
- (هند): التعامل مع المجتمع الخارجي ليس قبل سنة، نطمئن بعدها أنكن ستُجِدن التعامل مع المجتمع بكلّ مكوناته.
- (فوزية) بامتنانٍ تقول: أنتن على حق.

بينما تجهمت (ليندا) ومثلها صغيرات السن، السلوك المقنن بوقتٍ وقصر التعامل مع فئةٍ بعينها والتحجيم والسيطرة شيءٌ خانقٌ يناقض جنوحهن للانطلاق.

كانت أعراض انسحاب المخدر تؤلمهن بدرجاتٍ متفاوتةٍ مصحوبةٍ باكتئابٍ وقلقٍ وتقيؤٍ وشعورٍ بالإرهاق الدائم والهبوط أحيانًا، بعد أن حيل بينهن

وبين ما يشتهون رغم العلاج المكثف والتفكير الجدي في الهروب أحيانًا لولا سيارة البوليس بطاقمها: الضابط وأميني شرطةٍ وعسكري، بزيهم الرسمي، والآلي المشهر، يقفون

خارج أسوار القصر تحسبًا لفعلٍ مُحتملٍ من حديثات عهدٍ بالحياة الجديدة المرغمات عليها.
ولم يعرن جمال القصر وحديقته الغنّاء ونظافته وسعته أيّ اهتمام، بل إنّهن تمنين العودة إلى من حيث أتين، حفاظًا على ديمومة حياة، العتق من ربقتها يفوق ألم الذبح، ولِمَ الإصلاح أو العدول عن تلك الحياة وهن لا يشتكين آلامها اللاتي ورثنها ولا يطمحن في النقيض.
الحياة السوية كن يرقبنها من بعيدٍ كمن يشاهد فيلمًا لأشخاصٍ يرفلون في نعيم الجنان، وفي النهاية هو فيلمٌ لا يرقى مرقى الواقع والذي لن يكون غير ما هُنَّ فيه.
منهن من حاولت الانتحار مثل (أماني) و(سلوى) للتخلص من السجن الناعم الذي حرمهن الانطلاق تجاه كل ما يرغبن، فحاولتا قطع الرسغ بسكين المطبخ والكاميرات فضحتهما بعد أن سال الكثير من الدماء، فقامت مقدم (جيهان) بإبلاغ الإسعاف وإثبات حالة وتم نقلهما إلى المستشفى في حراسةٍ مشددة.
اجتمع فريق العمل داخل القصر وكلهن أجمعن على أن الانتكاس ومحاولة النكوص أمرٌ واردٌ ومتوقعٌ والحمد لله أنّنا تداركنا الأمر ولكنّ هذا يجعلنا نكثف من مراقبتهن.
الدكتورة (هدى): الوضع ليس بهذه القتامة، فقط أعراض انسحاب المخدر هي ما دفعتهن لذلك خاصةً وهُنَّ أول مرةٍ يتم الضغط عليهن بنعومةٍ وصرامةٍ في آن، منهن من دخلت السجن، وفي السجن كانت تحصل على كلِّ ما تريد دون

معوقات، لكن هنا نظامٌ حاسمٌ فعليًا وهذا هو المحك الذي تخفق فيه بعضهن.
قصر به نزيلات أُرغِمن على سكناه، في البداية أصابتهن صدمةٌ حضاريةٌ وانبهارٌ موغل ثم فترن بعد أن أدركن أنّهن ماضياتٌ إلى حياةٍ مناقضةٍ لفوضاهن ما يعني أنّهن فعليًا سجينات، والإنسان بطبيعته يحب المغامرة والجوس في الأرض، والكشف والاكتشاف، وكلّما فعل ذلك بأريحيةٍ تدفقت داخله شلالات الإحساس بالحرية والمتعة.
لذا كان التوقيف في قصرٍ والحياة المنضبطة بلوائحَ ومواعيدَ صارمةٍ يفقدهن لذّةَ الاستمتاع بالعيش في هذا القصر الفخيم ... الحرية هي المتعة بل المتعة الحقيقية، ودونها مهما جمل وتم طلاؤه بكلِّ غالٍ ونفيسٍ لهو الكدر والشقاء، تشتقن لفوضاهن، وللمخدر الذي يمنحهن لذّةً من نوعٍ ما حتى لو كانت دقائقُ يعقبها ضيقُ صدرٍ وحيرةٌ وقلقٌ ورغباتٌ محمومةٌ في فعل أشياءٍ متناقضةٍ والبحث عن مفقودٍ لا يدركن كنهه، الحياة بالمخدر جحيمٌ وسبيٌ مهين.
أولئك اللاتي أبسلن إبسالًا في القصر الذي حرمهن من متعٍ تعلَّمن أنّها زائفة، كالجنس طِبقًا لمزاجهن الشخصي، مع رجلٍ أو امرأة، المهم أن تتحقق المتعة، لا يهمهن أنّها متعٌ زائفةٌ قصيرة الأجل سرعان ما تتبدد، لا يهمهن أنّها خلّفت في القلوب نكتًا سوداء نشعت داخل هذه الكيانات فعمت أرجاءها فعميت عليهن الرؤية، فأصبحت الحياة بالنسبة إليهن مخدرًا يستزدن منه في كلّ مرة، وجسدًا ينتفض مع جسدٍ آخر ليشي كلاهما بالإثم الذي يعرفن به.

القصر ذو الفراش الوثير ليس إلّا سجنًا مُحسَّنًا، والنسمات الرطيبة المحمَّلة برائحة الزروع والأزهار ليست إلّا لطمس العيون والقلوب، وهسيس الأشجار الذي يداعب آذانهن ليس إلّا طلاءً زائفًا للحقيقة، إنّهن سجيناتٌ في قصرٍ مشيدٍ في الطريق الصحراوي بعيدًا عن أعين الناس.

في الحديقة منهن جالساتٌ ومنهن من يسرن، يطلقن زفرات الرفض المطلق لما هُنَّ فيه، تعلوهن سماءٌ صافية، نثرت نجومها التي سطعت بعد صلاة المغرب، حتى هذه الصلوات لا يُقبلن عليها بشغف سوى (فوزية) وابنتها (سلوى)، و(أمنية)، أما الباقيات تفاوت شعورهن بالرفض لها، فهي ثقيلةٌ على نفوسهن، مُكرهاتٌ على الالتزام بأدائها، يبلغ الكره قمته لدى (ليندا) التي تمثل أنّها تصلي لكنّها تؤدي الحركات الشكلية دون الشعيرة التي تتماس

مع شغاف القلوب المطمئنة، اكتفين بالشكوى فيما بينهن حتى حين، أولئك اللاتي احتنكهن الشيطان، واللاتي لا يعلمن إلى أيِّ حينٍ يبلغ تحملهن.

(سونيا) مجهولة الأصل، ربما اختطفتها المعلمة التي نشأت بين يديها، علمتها النشل وخفة اليد، تصعد إلى الباصات العامة، سريعة الحركة، تفصل الأجساد الملتصقة رغما عنها بيديها لتفسح لنفسها ممرًا تمر منه متلمسة الجيوب المنتفخة والحقائب، تجيد مدّ يدها لتأخذ ما يقع تحتها، كثير أو قليل، تعود مجبورة.

في صغرها كانت تعطي المعلمة كلَّ محصولها اليومي دون نقصانٍ حتى إذا بلغت العاشرة علّمتها رفيقاتها كيف تحتفظ

لنفسها بمبلغٍ ما بعيدًا عن عين المعلمة، في هذا الحوش القذر المتداعي، ذي الفراش المتسخ والذين تحصلوا عليه من على أكوام القمامة، مهترئ، ينامون ويغطون في نومٍ عميقٍ لا يعبؤون بالحشرات التي ترتع بأجسادهم كمأدبةٍ آهلةٍ لن تعترضها يدٌ ما حتى وإن حدث فاليد المجهدة حانيةً قسرًا، فقط المعلمة تنام على سريرٍ بفراشٍ نظيفٍ يتناوبن يوميًا على غسيل فراشه بالدور والويل لمن يقصر.

تحرص على نوم البنات بجانبٍ يخصهن والأولاد بجانب يخصهم، خوفًا من تضاجعهم ما يثمر عن أفرادٍ جددٍ وتعتل منظومتها.

التسول لمن كبر بالسن ولا يقدر على الحركة فيجلس في الأماكن التي تعج بالمارة، كيانٌ هزيلٌ مثقلٌ بجملةٍ من الأمراض فضلًا عن سوء التغذية، يستعطف المارة بذلك الكيان المهيض المتداعي ليعود في نهاية اليوم مثقل الحافظة ليصبّ في يدها ما تحصل عليه مقابل المبيت في الحوش وطعامٍ هزيلٍ في الغالب وقلّما يكون ثريدًا من مخلفات التزلفً في المآتم والأفراح وموائد الرحمن والزحف إلى المقابر خلف الجنائز خاصةً وفي الأحياء الراقية متتبعين الذين يذبحون الأضاحي، وتعمير رأسه النهمة بكلِّ أنواع الكيف خاصةً الأفيون الذي لا شفاء منه.

هنا بالقصر تجلس (سونيا) بحديقة القصر، ذاقت طعم الشبع، والاستقرار النفسي بعد الشفاء من المخدر الذي استذلها، تعلوها سماءٌ صافيةٌ ويخترق سمعها أصوات رفقائها ممزوجةً بصوت السيارات وهي تمرق ملتهمة

الإسفلت، تخترق جسدها نسماتٌ رطبةٌ خريفيةٌ ممزوجة بتخايل الأفنان من حولها لتلفظ ذابلها الذي يكسو الأرض، تلك النسمات محمّلة بروائح الأرض بمنتوجها المتنوع ذي الروائح الشافية لنفوسٍ قاحلةٍ ما ألِفت الجمال الذي غاب عنها كثيرًا، حتى مجرد التطلع إلى ألقه وتأثيره ترفٌ لا ينبغي لها أن تدركه.

في ذاكرتها المشحونة بكلِّ ما هو سيئ، صعدت منها إلى رأسها معلنة عن نقطة بدايتها التي سجّلها إدراكها عند اكتماله، عندما كان عمرها سبع سنوات تخرج مع رفيقاتٍ أكبر لتتعلم منهن الأخذ، أخذ كلِّ شيء، هُنَّ لا يفطرن، بل يتسولن فطورهن، قد يتحصلن على ما يكفيهن وقد يتضجر منهن الناس، ولكن كنَّ يتحصلن على رزقهن كما كنَّ يقلن ذلك.

دائمًا البطون خمص لا تبلغ الشبع إلا مراتٍ قليلة، الخروج من السابعة صباحًا وحتى الثانية عشرة ليلًا، تقطعن وصال عملهن بالانتحاء جانبًا ظهرًا لأكل ما لا يسد الرمق، في خراباتٍ بعيدةٍ عن الأعين بصحبة رفقاء آخرين ممن يشاركنهن في حوش المعلمة، صبية من نفس الأعمار أو شباب مثقلون بغرائز بهيمية حديثة الحلول في أجسادهم، للبطون حاجة، وللفروج حاجة، يشتركون جميعًا في تلبية هذه وتلك، إنها الحقوق التي تنتزع من مجتمع لم يتحصلوا منه سوى على العقوق.

تجلس جانبًا حتى ينتهي نزالهم البهيمي، يتناهى إلى سمعها أصواتٌ تنبعث من أجساد فتية تتساوى مع أدنى المخلوقات

في سلوكها، ومفرداتٌ من قاعٍ لم يرتفع بعد، دفعها الفضول ذات مرةٍ لرؤيتهم فقامت بوجلٍ تسير على أطراف أصابعها لترى اشتباك الثنائيات في حفلٍ دون أن يروها وإن لم يكن هذا ذا أهمية تذكر ليتحد سمعها وبصرها في الحضور فتعلوها دهشة كانت تدفعها للتلصص عليهم في كلّ مرة، فإذا شبعت البطون والفروج انطلقوا مرة أخرى لمواصلة الحصول على "أرزاقهم"، بلغت العاشرة وعلا جانبي صدرها نتوءٌ يشير إلى تأهب جسدها للانتقال إلى مرحلةٍ جديدة، رأتها العيون المراقبة، فلم ينتظر هذا الذي بلغ الحلم ذو الستة عشر عامًا حتى تمام نضجها وآثر أن يكون الأول الذي يخترقها، فأمسك يدها برفقٍ مبتسمًا لأنّه سيفوز ببكر، اصطحبها إلى المقابر ليعاملها معاملة فنانٍ يجيد انتهاك لوحةٍ صمّاء، فأجاد استدعاء أشياء كامنةً لم تنتبه إلى وجودها من قبل،

سرّها وجودها فاستأنست به كما أستأنس بها وارتقيا معًا بالتدريج مرقى الأمراء داخل مملكة، حتى قطرات الدم التي سالت منها كانت ميثاقًا وإيذانًا ببدءٍ جديدٍ ماتعٍ لأرجائها، ثم مضيا عازمان على أن يكونا لبعضهما فلا يضاجعها سواه كما لا يضاجع سواها، ثلاث سنوات ينهلان معًا من معين ريهما حتى رغبها آخر من رفقاء الشقاء فلم تحنث العهد وأخبرت حبيبها الذي تتبعه حتى اختلى به فجحظ عينيه له وأمسك بتلابيبه يهدده بأن لا يقربها، ولكنّه استهان بتهديده له وتربّص لهما حتى تبعهما إلى موطئ ممارسة الحب، وأراد أن يثبت له أنّه الأقوى والأحق بها، فغافله وضربه

على رأسه بقضيبٍ من حديدٍ ليسقط مضرجًا في دمائه ثم أعاد الكرة فلم يرتد بصره حسيرًا وتأكد من أنّه عدم الشهيق والزفير بينما هي ألجمتها الصدمة، فقط كانت تبكي وترتعد فرائسها وهو من ينظر إليها شذرًا مهددًا: "حذاري أن تنطقي بكلمة، كلب وراح وإلا واريتك بجانبه".

لزمت صمت الخائفين فلم تنبس ببنت شفة، حتى عندما جذبها من يدها وضاجعها عنوة، ثم مضيا معًا ليلحقا برفاقهم، وبدأ السؤال عن حبيبها فبادر غريمه بالقول لا نعرف عنه شيئًا، فاتجهت العيون صوبها وهي المذعورة والتي بان على وجهها أمارات الخوف، فأدركوا أن هناك شيئًا ما، حتى إذا اختلت برفيقةٍ لها باحت بما حدث، وفي نهاية اليوم بين يدي المعلمة اعترفت بكلِّ ما حدث فقامت بطردهما معًا خوفًا من تتبع الشرطة ومداهمتها لمملكتها.

خرجا معًا وهي له كارهة، صحبها إلى أحد العشوائيات في أطراف المدينة، وابتنى لهما كوخًا بالصفيح، فلم تلبث أن غافلته وهربت بعيدًا عنه.

داهمت الشرطة معقل المعلمة وقبضت عليها، هرب من الأطفال من هرب وتم القبض على القليل منهم، وتم القبض على قاتل حبيبها الذي كان يبحث عنها وحُكِم عليه بالإعدام، وكان لا بدَّ لها من العمل بالدعارة، جسدها الذي لا تملك غيره.

أما البداية فكانت من جائعٍ يبحث عن جسدٍ يروي منه شبقه، فأخذ يرقبها جيئة وذهابًا وهي تقف طوال اليوم بين السيارات تمسحها في تحايلٍ واضحٍ لتتحصل على بعض

العملات من هذا وذاك ثم تعود في نهاية اليوم لتفترش كرتونة بجانب جراج وتنام عليها ... وفي غسق الليل ارتآها فرصته، يده الخشنة الغليظة كانت تعبث بمفردات جسدها، استيقظت فزعة فاحتواها بذراعيه وغشيها رائحة عرقه كما غشيه رائحة عرقها ولكن الرغبة استبدت به لتفوق تلك الرائحة التي اعتادها، لأنّها رديف الشقاء الذي يرتع فيه، ولا شيء يعدل التخفف من أحماله.

وضع يده على فمها، ذلك السبعيني مغضن الوجه، أسود الأسنان التي سقط معظمها.

- قال لها: سأبسطك، أخرج من جيبه عشرين جنيهًا، أمسكت بها فرحة ذاهلة، فالسعي بين السيارات طوال اليوم قد لا يحقق لها هذا المبلغ، فاستجابت له، فكان هذا بمثابة ميثاق وصك مرور إلى العمل بالدعارة، ومضت إلى حتفها بعد أن أجادت وجوّدت، أفضل من مرافقة الشمس طوال اليوم، أفضل من أن تدفعها الأيدي وتعبس الوجوه من ملاحقتها لهم.

اتفاقٌ مسبقٌ بميقاتٍ زماني ومكاني، عملٌ سهلٌ ومدرٌ للمال حتى ولو كان لا يتبقى منه شيئًا.

ورغم توخي الحذر أنجبت ابنتيها وتحايلت لاستخراج شهادات ميلادٍ لهما من خلال توسط عميلٍ لها، فكان استخراج شهادات ميلادٍ لهما طوق نجاةٍ لهما ولها.

(٢)

مع آذان الفجر تُضاء غرف النوم مع صوت الآذان من السماعات داخل الغرف رغمًا عنهن، فلا بدَّ من الاستيقاظ مهما تبرمن وأبدين استياءً وتمعرت وجوههن، بعد الآذان مباشرة تقول الدكتورة (نرمين) ربع ساعة للوضوء ونتجمع في المسجد لأداء الصلاة.

المسجد هو جزءٌ تم اقتطاعه من الجراج، مازال صوت الدكتورة (نرمين) يصدح بالسماعات: على كلِّ مشرفةٍ أن تحضر بمجموعتها، ثم لتحثهن تقول: الصلاة يا أمة الله أول ما نحاسب عليه في القبر، وأول ما نحاسب عليه يوم القيامة، من أحبّ لقاء الله أحبّ الله لقاءه، مازالت تحفزهن وتحاول أن ترقق مشاعرهن كي يقبلن على الصلاة طواعية وبنفسٍ راضية.

يحضرن إلى المسجد ثقيلات الخطى إلّا قلة قليلة منهن، حمل النفوس على اتباع الحق شاق، مرير، ثقل الأجساد من ثقل النفوس، وثقل النفوس من كثرة الذنوب، لذا فالأمر شاقٌ عند من لم تتخفف.

وقفت الدكتورة (نرمين) لتؤمهن، تذكرهن بمحاذاة المناكب وسد الفرج حتى لا يتخلل الصفوف الشيطان.

بعد أداء الصلاة تعتدل الدكتورة (نرمين) في جلستها لتبدأ الدرس،

- فتقول: أمامنا ساعة، نصفها سأحدثكم في موضوعٍ ما ولا مانع أن تطلبن موضوعًا بعينه، والنصفُ

الباقي من الساعة مخصصٌ لأسئلتكن، فإن لم يكن لديكن أسئلة في الدين فسوف أكمل أنا الحديث، المهم أن يكون وقتنا مثمرًا إن شاء الله.

اليوم سوف أتحدث عن مكانة المرأة في الإسلام وهو ما يستتبع الحديث عن الزواج كمؤسسة شرعية لسلامة الصحة النفسية لأفراد الأسرة ولماذا حرّم الله الزنى واللواط والسحاق، هذه المواضيع هامة وسوف تمتد على مدى أيام حتى نوفيها، الأسئلة مفتوحة ودون حرجٍ أو قيود.

(أماني) تحاول إيجاد مخرجٍ لممارستها للسحاق فتقول: كنا نسمع دائمًا بالتليفزيون أنّ الشذوذ الجنسي مرضٌ يستوجب العلاج.

الدكتورة (جويرية) تتفهم ما تُبطن فتقول لها في هدوء: توصيف الشذوذ الجنسي بالمرض يعني أنّ الله ظالم، لأنّه عاقب قوم لوطٍ الذين كانوا يأتون في ناديهم المنكر، فهل الله يعاقب مرضى؟!

(نجلاء) تعزف على فنن أنّهن مقهوراتٌ على الفعل فتقول: قضينا جلَّ سنوات أعمارنا نمتهن هذه المهنة والتخلص ممّا اعتدنا عليه أمرٌ ليس بالهين، بل ربّما يكون مستحيلًا.

- **الدكتورة (نرمين): لا يوجد مستحيل ونحن هنا للأخذ بأيديكن.**
- **(سونيا) تقول مبطنة الشكوى: أنتن لا تشعرن بنا، تتعاملن معنا كآلاتٍ وليس كبشر، أنتن ترقبن تنفيذ تعليمات مكتوبة،**

لو كنتن مكاننا لما استطعتن تنفيذها... كلٌ منكن تقضي ساعات عملها ثم تعود لتنام بحضن زوجها، يمتعها وتمتعه، أنتن مشبعات من كلِّ الرغبات، بينما نحن نعاني الحرمان المطلق بعد الفوضى المطلقة.

الدكتورة (نرمين): أنتن لا تعرفن قيمة أنفسكن، السطو على جسدكِ بأجرٍ مدفوعٍ أو دون أجرٍ لهو الدليل القاطع على شعورٍ من تفعل ذلك بالضِعة والصغار والحقارة.

همسٌ وهسيس حروفٍ متداخلة، تقطعه الدكتورة (نرمين) بالقول: نحن معكن نعاضدكن وأنا سعيدةٌ جدًا بهذه الصراحة والمكاشفة، نبدأ الدرس وأنا على يقينٍ أنَّ الله لن يخيّب مسعانا.

إزاحة صخرة التعود عن سلوكيات بعينها يحتاج الكثير من الجهد، وهو ليس بالشيء السهل، بدت النزيلات مكدرات الأعطاف إلّا من قِلّةٍ ترى أنّ هذا التوقيف حماهن من مصائرَ مخيفةٍ، كنَّ يرقبنها بوجلٍ خشية الارتماء في دجى فسطاطها بعد أن غادرتهن فتوة الشباب، وسيّجتهن قسوة مجتمعاتهن وسوطها اللاسع، فكبر السن مع غياب الأمان لهو الكفيل بتحمل ألم المرض والجوع والزمهرير والقيظ في صمتٍ آسنٍ أو بكاءٍ غير مسموعٍ أو مرئي، تشكين في الفراغ وللفراغ.

أما متوسطات العمر فلا يثقن في هذه العهود من كثرة الإهمال الذي علق بهن... وصغيرات السن ذوات الغرائز الفتية، واستشعار المتع السريعة

التي تغشي أعينهن ورانت الآثام على قلوبهن، فيرين أنَّ هذا التوقيف فيه الحرمان من تلك المتع الحياتية اللاتي تتشبثن بها، فقد نشأن في مروج الحرمان المطلق بين آخرين يعانون التخمة المطلقة، فيكون نفي الحرمان الذي يعانينه بالجنوح الدائم تجاه الخطيئة.

الخطيئة وحدها هي القادرة على ترميم تلك الشروخ النفسية دون التفكر في عواقبَ لا تتبدى ملامحها في المستقبل القريب.

بعد صلاة الظهر تمازحهن (سمر) و(هند) اللتان تشرفان على القيام بأعمال التنظيف والمطبخ، فيتحول القصر إلى خلية نحلٍ تموج بالعمل.

كبيرات السن يقمن بتجهيز الخضروات للطبخ والصغيرات للأعمال التي تقتضي بذل مجهودٍ أكثر، يمتلئ فضاء القصر بأصواتهن، صياحٌ ومزاحٌ وحديثٌ متواتر، ومازالت ألسنتهن لم تبرأ من بعض المفردات الواجب انتفاؤها، فلا تتوانى (سمر) و(هند) عن التذكير بعدم قول ذلك، ولا مانع من الغناء والرقص والنكات الفاحشة، فيتمعر وجهها (هند) و(سمر)، فتشير الدكتورة (ابتسام) لهما بألّا تُعلِّقا، تختلي بهن قائلة: مرةً نُذكِّر، ومرةً ننهر، ومرة نعمل نفسنا لم نفهم ما يقلن، كي لا يمللن، فلن يبرأن من سنوات الإثم في أيام.

(سمر) و(هند) تتنقلن بينهن أثناء تناولهن الغذاء ويؤكدن على التعامل باعتدالٍ مع الطعام والحلوى، فلا يهدرن ولا يسرفن، ومازال التأكيد على آداب تناول الطعام، فتذكرهن هند بالقول: تعاملن كما لو كنتن هوانم يجلسن على مائدة.

فضحكن بمجونٍ متهكماتٍ على توصيفها وقلن لها يأسًا: ومن الذي سيعتبرنا هوانم؟

- (سمر): لا يهم، تعاملن برقي لأنفسكن أولًا كما أن أبناءكن يستقين منكن كلَّ شاردةٍ وواردة، الناس تتعامل معكِ في وقتكِ الآني، فلن يُكتَب ماضي كلٍ منكن على ظهرها ليعرفه القاصي والداني، ما من إنسانٍ في حياتنا إلّا "عابر"، فلتتركي انطباعًا جيدًا لدى كلّ من يتعامل معكِ.
- (هند): ولدينا خبرٌ جميل، سنقيس درجة التزام كلٍ منكن بتوجيهاتنا وهناك جوائز.
- (سونيا) متلهفة تقول: مثل الخروج في رحلة.
- (سمر): سيحدث ولكن ليس خلال هذه السنة، لأنّكن في طور التأهيل.
- (أمنية): نكون خرجنا للحياة ونعيش على قدر دخولنا.

هنا تدخلت الدكتورة (ابتسام) فقالت: نحن لن نترككن مدى الحياة، سنتابعكن باستمرار ولن نتوقف عن كلِّ أشكال الدعم التي تختارونها أو التي نَراها لازمة، لكن نعيد عليكن ما سبق أن قلناه: أنتن بضعٌ منّا وأهلنا.

أرخت هذه الكلمات سدولها على قلوبهن وإن تباين التلقي، لكنّها أشعلت فيهن الأمل، هذه المسحة من الحب وعدم الإنكار لهن هو ما كنّ يفتقدنه في السابق، نظرًا لديمومة الشعور بالنقص والدونية تجاه المجتمع

الذي سحقهن عن تقصدٍ دائمًا وغفلٍ عَرضًا، وطغيان الأولى على الثانية أورثهن اللجة والارتياب تجاه من يتعامل معهن، ولأوّل مرةٍ يشعرن أنّهن لسن القذارة التي تعافها النفوس.

لأوّل مرةٍ يهبط على قلوبهن ارتياحٌ رطيب، استنكهن طعمه ورائحته، لأوّل مرةٍ منذ ولوج دفقات الحياة فيهن، لأوّل مرةٍ تشعر كلٌ منهن أنّها إنسانة ولها حقوق، لأوّل مرةٍ هذا الاعتناء بصحتهن، بالكشف الدوري والإنصات لشكواهن، فالطبيبة المقيمة تحمل ملفًا كاملًا لكلٍّ منهن بالحالة الصحية، والمريضات بأمراضٍ تناسليةٍ معديةٍ تم التعامل معها بعلاجٍ مكثّفٍ حتى تمام الشفاء، وذوات الأمراض المزمنة يتمّ متابعتها بصفةٍ دورية.

إنّها المدينة الفاضلة التي طالما تغنّى بها كثرٌ زورًا وبهتانًا، بينما هي الآن حقيقةٌ ماثلةٌ لهن، ينضوين بخيمتها، تكأةٌ وسندٌ أورثهن الشعور بالأمان وإن وخزهن من آنٍ لآخر سلوكياتهن اللاتي مردن عليها ردحًا من الزمن، وهن حديثات عهدٍ بسلوكياتٍ قشيبة.

كانت (فوزية) أكثرهن تأثرًا بهذه الكلمات؛ لما لها من جذورٍ في أقصى الجنوب غادرتها قسرًا، تلك البقعة النائية لا تعترف بخطأ الأنثى، ولا يمكنهم مواجهته بأيٍّ حالٍ من الأحوال، محوه وزواله لا يكون إلّا بزوال الخاطئة، واختارت هي الطريقة التي بها تزول فقط من حياتهم بينما هي على الجانب الآخر عاشت في الخطيئة وللخطيئة.

في مجتمعها الجديد والذي فُرِضَ عليها والذي له قوانينه الخاصة ورغمًا عنها خضعت لها وامتثلت، فلا يمكنها

الرجوع، أي رجوعٍ! فلقد مادت بها الأيام وتمادت دون يدٍ حانيةٍ تبغي بها الخير، تفرعت شجرتها التي استقت من ماعون الإثم دون شبع أو ارتواء، كأنّ ماءها الأجاج، وهي من رأت بأمِّ عينها الكلب الذي التهم ابنها، فبكت دون دموع البكاء الطويل ... واجهت منفردة الريح العاصف الذي استبدّ بها لتنجب مراتٍ عدةً دون أن تنتبه لصاحب البذرة فكلّهم سواء، يقتسمون الشقاء بالتساوي، حتى الذي رأته يموت أمام عينها دون مُودّعٍ أو آسفٍ عليه، بل ربّما حُسِدَ على الرحيل الذي أنقذه من مرجل البؤس والشقاء.

تذكرت كم من مراتٍ رأت فيها أحدهم وقع ميتًا خلف صندوق القمامة ولم يُكتشف إلّا بعد أن انتفخ محتواه، وآخر مات على قضبان السكك الحديدية وبعثر القطار مكوناته وحوّله إلى أشلاء فأصاب ذوات الإنسانية الزائفة بالأسف حيث كانوا يجمعون شتاته في كيسٍ واحدٍ وهم أنفسهم من كانوا يعافونه ويتحاشون الاقترابَ منه عندما كان كيانه متوحدَ الأعطاف.

كانت تخاف المجهول دائمًا، وتوزّع هذا الخوف بينهن ليقرض قلوبهن بدرجاتٍ متفاوتة، تزيد عند كبار السن، وتقل عند الصغيرات اللاتي يتكئن على فورة شبابٍ سرعان ما ستغادرهن.

(فوزية) تختلف عن الأخريات في كونها لها أصلٌ متجذرٌ يشدها رغمًا عنها من آنٍ لآخر حتى لو كانت العودة إليه تُعد ضربًا من الجنون، بينما الأخريات كنَّ كعشبٍ نبت رغمًا عنه في الفراغات الموجودة بين بلاطات الرصيف غير متقنة

الاصطفاف، استهانة ممن صفّها، واستهانة بعاقبة فعله، ليست لهن جذورٌ معلومةٌ تجعلهن دائمي الالتفات للخلف.
بينما (فوزية) التي كانت تتوق للعودة إلى مرابعها التي كانت في صغرها تخشى أن تباغت برؤية أحدهم، ممن تنتمي إليهم بالدم أو بالجيرة، وهم الذين لا يغفرون للمرأة بقعةً سوداءَ واحدةً في ثوبها الأبيض، فماذا عنها الآن وقد غاب بياض ثوبها لكثرة البقع السوداء فيه.
بعد موت وليدها ذهبت مع ثلّةٍ تواتر حديثهن عن سكنهن في طرف المدينة، في بيوتٍ بالصفيح، يتحايلن كي تصبح بيوتًا حتى ولو بالمجاز، مجتمعٌ موازٍ يقتسمون ويتشابهون في البؤس والفقر، تبعتهم خفية إلى حيث يقطنون، أعشاش من الصفيح متراصة، يشد بعضها البعض كأنهم يحتمون ببعض، وهي بنيانٌ مهترئٌ مغلفٌ بالصدأ والذي تمتزج رائحته برائحة مجارٍ ورائحة أجسادٍ بشريةٍ تئن بعرقها الآسن، يخترق جملةً هذه الروائح رائحة طعام يُطهى يسيل له لعاب الجائع، الأرض نتوءاتٌ متعرجةٌ والأطفال من كلّ الأعمار يذهبون ويجيئون قاطعين الطريق غير المعبّد.
صارت (فوزية) تأنس بهم، استشعرت الألفة بينهم سريعًا رغم عدم وجود مأوى لها فلم تبنِ عشتها بعد.
جلست على صخرةٍ ناتئةٍ تستريح من السير دون اهتداء، تستشعر رغبةً في التبول، تكبح جماحها لحين تدبر أمرها، يرافقها الشعور العاصف بالجوع.
(أمّ أمين) سيدة أربعينية ذات خبرةٍ ودربة أدركت من خلالها شرود (فوزية) وانكسار نظرتها، فدعتها لتأكل مع أبنائها

الذين تراوحوا بين الشباب والصبية، لم تتردد في القبول، دخلت لتجلس بينهم على الأرض حول الطبلية، طعامهم كان صينية بطاطس مع بعض الأرغفة التي اقتسموها وأخذوا يلتهمون الطعام بينما هي يكتنفها حياء اللقاء الأول، فقامت (أمّ أمين) بوضع بعض شرائح البطاطس في رغيفٍ وناولته لها، فأخذته والتهمته التهامًا، لم تبلغ حدّ الشبع ولكن انتفى عنها الجوع مثل هذه السيدة وأبنائها، فهم لا يبلغون حدّ الشبع إلا فيما ندُر.

سألتها (أمّ أمين) عن وجهتها، فامتدت طاولة الحديث بينهما حتى علمت سيرتها ومسيرتها، فقالت لها: ابقي معنا هنا.

تلفتت برأسها على (حسن) الذي تناديه (أمّ أمين)، شابٌ في السابعة والثلاثين من عمره، نحيلٌ متوسط الطول مقوّس الساقين بشكلٍ ملحوظ، يعرج أثناء سيره المتعثر، ويتحدث بصعوبةٍ شديدة، حروفه غير مفهومة إلّا لمن عاشره فترةً طويلةً وأصبح يعرف ما يريده من كلماتٍ معتلةٍ على لسانه، تقدّم تجاهها، قامت بلف رغيفٍ محشوٍ بشرائح البطاطس، فقابل فعلها بالرفض القاطع بينما هي تحذره من أن يكسر خاطرها فأصرَّ على الرفض.

كثيرًا ما تذهب إليه ليلًا تفتئت على شبابه رغم مرضه، تقوم هي بغالب المهام لتساعده على التخفف من أحماله، وتمنحه بعض المتعة، في اللقاء الأوّل تهيّب الفعل ولكنّ جرأتها نزعت عنه بكارته ليسوّد معها صفحات الإثم المبين كلّ ليلة.

أفل ضوء النهار وحلّت أمارات الليل الزاحف على استحياءٍ حتى كسى الكون تمامًا، وخرج سكان العشش من كلّ

الأعمار ومن الجنسين يشربون كلّ ما ينفث الدخان الأزرق، يحتسبون مؤنتهم منه قبل احتساب مؤنتهم من الطعام، كياناتٌ تبحث جاهدة عما يعينها على تقبل ما هم فيه من الدونية في كلّ شيء، نهارًا يعملون لدى آخرين تتنوع دخولهم ما بين المتوسط وفوق المتوسط، لا يطمحون في الحصول على نفس مستوى المعيشة ولا دونه بمراحل، يقبلون ببقاياهم دائمًا، ملابس وفراش وطعام، تلك الدونية التي ارتضوها أنستهم حقهم في الحياة، بل هم لا يعرفون شيئًا عن هذه الحقوق، نسيان هذا الواقع الأليم خلف غلالات الدخان الأزرق تمنحهم شيئًا من المتع الوهمية والتي تكتمل بالتضاجع غير المشروط، فهم يتزوجون ولكنّ الحصول على المرأة لا يكتنفه أيّة شروط، كلٌ منهم يقوم ليقترن بمن يرتضيها وترتضيه هذه الليلة، إمّا للتوافق والتكامل الجسدي الذي يتحقق لهما أو أنّ كلاهما يفهم ما يبتغيه، وما يحقق له تمام الارتواء، أو كأن تكون صغيرة غضة البنيان، فاترة اللفظ والنظرة، سمهرية تمنح ما لا تمنحه أربعينية أو خمسينية، أو أن تكون مكافأة على خدمة ما قدّمها أحدهما للآخر، فيقبل الآخر على سبيل المجاملة، ولا ضير أن يكتب الرجل ما تلده زوجته باسمه، فكلّهم يقتسمون الشقاء بالتساوي، يعلمون أنّهم بؤساء يلدون بؤساءً مثلهم، فلا مواريث ثقيلة ولا أنساب مدوية، فهم من الشقاء وإلى الشقاء يُساقون.

تلك الخلية التي تتضخم في غفلةٍ من المؤسسات ذات الأختام التي تمهر كلّ الأوراق، نسيت أو تناست الهبوط بأختامها في مرجهم المشوّه كما كلّ مشوّهٍ بحاجةٍ إلى تقويم.
شاركتهم (فوزية) حياتهم بكل مقتضياتها، ففي كنفهم دفء الغائبين، أو الذين كانوا من المفترض أن تكون بينهم، ذويها الذين يفتقدون الحلول الوسط لبعض المطبات الحياتية، وسار بها قارب الأيام يلاطم الأمواج والدوامات وهي معه مستسلمة، أنجبت ابنتيها (سلوى) و(أميرة)، وأجهضت نفسها كثيرًا ومات منها ثلاثة أبناء من سوء التغذية والإهمال الطبي.

(٣)

سكان العشش حلّوا من كلّ فجٍ عميقٍ عندما تغرّبوا بين ذويهم، عندما تحوّل حضنهم إلى مرجٍ من الشوك، هبّوا يتسللون خفية مثقلين بآلامهم التي تظلّ فوق كاهلهم حتى يُقبروا، لا يبرؤون منها طيلة حياتهم، كأنّها تسومهم سوء العذاب حتى بعد تمردهم على جفاء أهليهم، فإنّها تأبى مغادرتهم كعاهةٍ مستديمةٍ لا شفاء منها، بعضهم يبوح بما ألمَّ به، وبعضهم لا يُفصح عمَّا بقلبه والذي يصبح سجنها الدائم، تجلدهم وهم يتحملونها في صمتٍ مبرح، كأنَّ البوح بها يعني كشف عورتهم التي لا يرغبون في إبدائها.
فقط يهيمون على وجوههم داخل هذا الناموس الذي جُبِروا عليه حتى يذوبوا في هذا الجمع الغفير، وينجبوا كما غيرهم، يشتركون في هذا التفريخ دون السؤال وماذا بعد؟ فالبَعد هنا كما القَبل ما لم تكن هناك إجراءات توقف هذا النزيف البشري بطريقةٍ ما.
(نشوى) تعُب من ذاكرتها ما كان ذات يوم، منذ أن تفتح وعيها في هذا الجمع غير المختار، يستيقظون صباحًا، سكان منتجع العشش، وهي معهم قبل أن يكتمل وعيها وتعرف أنّها حتمًا مدركة ممن حولها، من كلّ يدٍ آثمةٍ أو جُبِلَت على الإثم الذي أصبح دينهم وديدنهم، كانت في الرابعة عشرة من عمرها، وبدأ قوامها في التعبير عن نفسه بإبراز جديده والذي امتدت إليه عيون من أحبته وأحبّها ولم يكن بدًا من التعبير عن هذا الحبّ، ولِمَ لا؟

وكلهم يقتنصون تلك المتعة كأنّهم يقتنصونها من براثن القفر الموحش الذي لا ثريد لديه سوى هذه الأجساد، فإن كان الجسد هو الثريد الوحيد الذي يتحصلون عليه فلماذا يحجمون؟

انطلقا معًا في توحدٍ جسدي وحسي فأنجبت منه ابنها الوحيد، حملت وليدها تنظر في وجهه سعيدةً به، فلما واجهت حبيبها بضرورة أن يتزوجا تنكّر لها بشدة، فأيقنت أنّه رفيق فراش وتلمست أمّها كدرها صامتةً ولم تستفق من غفوتها إلّا عندما رأته بين يدي أخرى داخل سيارةٍ فارهةٍ أسرعت تهرول تجاهها وتصرخ قائلة: ابني ...

تحركت السيارة بعيدًا عنها وذهلت من فعلة أمّها التي باعته لها بخمسة آلاف جنيه، ولكي تهوّن عليها قالت لها: من أين ستنفقين عليه؟ ولمن ستنسبينه؟ وأين سيعيش؟ ما فعلته هو عين الصح، أمٌّ وأبٌ وبيتٌ ومدرسةٌ وطعامٌ وفراشٌ نظيفٌ وحياةٌ رغيدةٌ مؤمّنة.

صفعة مازالت تؤلمها، ولكنّها كانت هجاءً لمفردات حياتها، لا يمكن أن تكون سوى رفيقة فراش.

الآن هي في القصر ببدايةٍ جديدةٍ آدميةٍ ما كان لها أن تطالها ولا تفكر فيها، لها الآن أن تعتد بنفسها وأن تنعم بتلك الخصوصية التي كانت تفتقد إليها فيما سبق ومازالت تذكر (حسن) ذلك الشاب الذي حلّ بينهم متخذًا منهم ملاذه الآمن، في ذلك اليوم حين بدؤوا بالخروج إلى أعمالهم وتغشاهم (حسن)

الذي سقط على الأرض أمام عشته، وقد برد ملمسه دلالة على توقف ديمومة سريان دمه في ممراته، عيناه مفتوحتان وفاغر الفم، بكوه كأنّه من دمهم، ربطوا فكّه برأسه كي يغلقوا فمه، وأسدلوا جفونه المنفرجة ودفنوه في مدافن الصدقة، فهو مبتور الأصل بالنسبة إليهم بعد أن رفض الإفصاح عن هويته، فنسجوا حوله الحكايات التي خمّنوها حتى صدّقوها مثل قولهم إنّه هاربٌ من أحكام قضائية، أو إنّه هاربٌ من ثأرٍ قديم، أو إنّه مريض العقل لا يستقيم له حالٌ بينما مجمل سلوكه يشي بسلامة عقله واتزانه.

بالفعل، لا يعرف عنه أحدٌ أيّ شيءٍ حتى اسمه؛ كذب عليهم ولم يفصح عن اسمه الحقيقي إلّا عند استخراجهم تصريح بالدفن عندما عثروا على بطاقته، اسمه الحقيقي عصام، سليل عائلةٍ كبيرة، ابن ناس كما كانوا يقولون عنه منذ التطلع الأول له عندما حلّ بينهم، كان عمره اثنين وعشرين عامًا.

مرضه استفحل يومًا بعد يومٍ بين أفراد عائلته الذين استشعروا الخجل مع الظهور به أمام الناس وتلمّس منهم ذلك بدءًا من والديه وحتى إخوته، حتى حان ميعاد زفاف أخته الطبيبة وسمع الحوار الدائر بينهم، وأخته التي تشكو حرجها من عائلة خطيبها وماذا سيفعلون يوم الزفاف، فطمأنها الأب بقوله إنه سيستبعده في القصر بالطريق الزراعي حتى ينتهي حفل الزفاف ليحل مشكلة تحرجهم منه.

كان يتابعهم من خلف الباب وهم يظنون أنّه نائم، فاضت عيناه بما جادت به آلامه، ما الذي يمكن فعله إن كان يمثل

سوءة آله الواجب التواري منها، وما جدوى التواجد معهم؟ الحب لا يتجزأ، إما أن يؤخذ دفقةً واحدةً وإما أن يغيب، حضوره طاغٍ، وريه لا ينضب، ولا يخضع لاستثناءات، هو فوق كلّ الأسباب والحيثيات، فإن تعذّر من تعذّر بأسبابٍ لتعطله أو لغيابه دلّ ذلك على عدم تواجده من الأساس، هنا كان قراره الموجع ولكنّه الوجع الذي يشفي وجعًا آخر، وجعه الذي لا يستشعره غيره.

حتى إذا جنّ الليل جمع ملابسه في حقيبةٍ وسار خفيةً يتوكأ على آلامه عازمًا على أن يغادرهم إلى غير رجعة، كلماتهم سهامٌ تطعن قلبه ليظلّ ينزف في صمتٍ ودون شكوى، أخذ يمرق بعيدًا، يركب حافلةً تسلمه لأخرى قاصدًا طرف المدينة بعيدًا عن الأعين، كلّ الأعين حتى بلغ مبتغاه، سار حاملًا آلامه ومرضه يجول بعينيه، يتفقد المكان، المأوى المختار، قد يكون سجنًا وقد يكون إقامةً جبرية، هذا القفر الذي يفتقر إلى أدنى المستويات الخدمية، أطفال صغار إلياتهم عارية، حفاة، من مختلف الأعمار يطاردون قافلةً من الكلاب التي تشاركهم منتجع البؤس، عشش بالصفيح الصدئ التي تستتر بمشمعٍ يخفي هشاشتها على نحوٍ ما، تحيط بسكانها قوافل البؤساء منخفضات بالأرض القاحلة، قد تحتوى على ماء غسيل، أو ماء مجاري، أو مستنقع لكلّ سائلٍ يفيض من معينٍ مجهول، لا بأس لو داسته أرجل المارة ففي العشش عوضٌ بطريقةٍ ما عن تلك القذارة التي علقت بها، في هذا المنتجع يقتسمون الشقاء وشظف العيش والألم والحب والكره والسعادة والبهجة حتى ولو كانت عارضة، يقتسمون

جسد المرأة دون ضيرٍ أو رفضٍ أو تعنت، أيامٌ حياتيةٌ قصيرةٌ أو كثيرة، فهم يريدون الفوز بلقاء الله ليشتكوا له ويشهدونه على اختطاف آخرين لحيواتهم فتحولوا إلى أشباحٍ تتوهم أنّها على قيد الحياة، جعبتهم مليئة بالشكوى.
شاركهم (عصام) حياتهم بناموسها ضاربًا عرض الحائط باثنتين وعشرين سنة من عمره، تبرّأ منه ذووه لمرضه الذي لم يختره، منذ أن كان في العاشرة من عمره عندما داهمته آلامٌ في عظامه، وطاف به والداه على الأطباء دون تقدمٍ يُذكر بل إنّ حالته كانت تزداد سوءًا، أصبحوا يتوارون من الناس من سوء ما بُشِّروا به، فلما استحالت حياتهم بالتخفي، أصبحوا يخفونه هو ولا يذكرونه، يفتخرون بإخوته الأطباء الثلاثة ويوارونه عن الأعين، كَبُر فاستفحل أمره، وأغلقوا عليه الباب يوم زفاف أخيه الكبير في حجرةٍ قصية، بعيدًا عن الأعين بينما الفرح مُقامٌ بحديقة القصر، كان عمره ثلاثة عشر عامًا آنذاك، شعر برغبته في التبول، فأخذ يطرق الباب بشدةٍ ويصيح بأحرفه المتعثرة، لم يسمعه أحدٌ حتى تبوّل على نفسه، بكى قهرًا بعد أن سال بوله على عقبيه، جاؤوا ليفتحوا له الباب بعد انتهاء الفرح وانصراف المدعوين، وجدوه نائمًا على الأرض وقد ناله من بوله الذي افترش شيئًا من الأرض التي نام عليها، إنّها الندوب التي تركوها على روحه ولم يفلح معها أيّ اعتذار، وفي كلّ مرةٍ يتسع الفتق على الراتق، حتى بلغ يوم زفاف أخته فكان ولا بدّ أن يغادرهم هو وقد كان،

تدبر أمره سريعًا بعد أن علم أنّهم ينزلون من على الجبل ليشتروا الفول من أحدهم والذي يبعد عنهم على نحوٍ ما، جلس بجانب (عم سعيد) الذي يقف في كشكٍ متهالكٍ لبيع السجائر الرخيصة ويحتفظ بعددٍ من الشيشة التي يجهزها لهم أثناء الليل، من التطلع الأوّل له أدرك الطعنات التي أصابته، فالوجه آسنٌ والعين بها دمعةٌ عالقة تؤرقه فلا هي تسقط فيستريح ولا هي تعود أدراجها، حيّاه بتحفظٍ فخفض له جناح الذل من الرحمة وربت على ظهره، حاول استدراجه للحديث ولكنّه أحجم ولم يطلب الآخر المزيد، ولكنّه قال: كيف يمكن أن أساعدك؟

- قال بأسى: أيّ عملٍ يناسبني، وبانت حشرجة صوته في كلمته الأخيرة.
- لا تقلق، ما ضاقت إلا وفرجت، قدرة فول تغني سكان العشش عن النزول للشراء من الخارج، شراء الفول والقدرة عليَّ، لا تقلق يا حبيب، الهم لما بيتوزّع بيخف.

تدبّر أمره سريعا وظلّ مكانه لم يبرحه إلّا إلى القبر.

(أماني) و(سلوى) في طريقهما الآن إلى القصر، داخل سيارة الشرطة، ترقبن الطريق والعابرين في صمتٍ عارٍ يكشف لهما الحقيقة، جسداهما تعافا من المخدر الذي آرقهما وأخذت عيونهما تسجل ما تقع عليه أثناء مروق السيارة، الأمن الذي غاب عنهما كثيرًا، الآن هما داخل سياجه فلن يسترقهما رفيقٌ ما ويسطو على جسديهما، كم استرقهما المخدر والجنس الذي كنّ يدربن بعضهن البعض لاكتساب

خبرات جديدة، الآن تحررتا من الأسر، أيّ أسر، فلن يتحرش جاحظ العينين كأنّه يبطن التهديد، تمتد يده لتعبث بمفردات الجسد، ثم تغرق هي معه في نوبةٍ من التفحش الفج ليبلغا حدّ التخفف من الأحمال، ثم يمضي كلاهما إلى حيث يريد متنكرًا للآخر ... مازلن يتذكرن الكثيرات ممن سُحقن طوعًا وجبرًا من بين رفيقات درب الشقاء؛ كانت (مها) ذات جسدٍ متقن التفاصيل وجمالٍ طاغٍ يؤثر العيون، عملت راقصة بالأفراح البلدي لدى متعهدٍ أجاد التجارة بها، وحدث أن عشقها أحد الكبار، ممن يمرقون بسياراتهم الفخيمة، فكثرت لياليهما البهيجة والتي خلفت ثمرتها في أحشائها حتى حملتها على ذراعيها، بنتًا، أرسل إليها من ذبحها وألقى بها في الطريق الصحراوي وأخذ ابنته، لن يبحث عنها أحد، فقد هددها البك الكبير بأنّ أيّ أحدٍ يذكر سيرتها سيلقى نفس المصير، ومن يكونون حتى يتحدوه! هم ليسوا إلا صراصير تفقأها أحذية البك، الحكايات كثيرة، والأوجاع أكثر.

الركون والامتثال لفريق العمل داخل القصر سيقيهن من مخاطرَ تعرض لها رفقاءٌ لهما، كانوا ذات يوم يخالطونهما.

اجتمعن الآن في قاعة السينما، كلّ تفصيلةٍ من حياتهن بالقصر مُعدّة سلفًا حتى الفيلم مقصودٌ لهدفٍ ما ... فيلم بالرسوم المتحركة عن الطوفان كحدث، متقن السيناريو والتفاصيل، بتقنيةٍ عاليةٍ في الصناعة والإخراج، اجتذبهن لما فيه من الإشارات، (نوح) فقد ابنه في الطوفان وكلّ من معه على السفينة ماتوا حتى أبنائه، البناء الضخم يسبقه هدمٌ كثيف، المهم أن تكون البداية صحيحة،

إنّه (آدم) الثاني الذي حطّ بسفينته في مصر فسمّى ابنه (مصرايم)، والحياة لم تتوقف على من ماتوا ولكنّها دائمًا في ديمومةٍ لا تهدأ، الآن هُنّ يهدمن ماضيهن استعدادًا للبناء الضخم، أبناؤهن ومن بعدهن أحفادهن، بأيديهن أوقفن طوفان الخطيئة كي يمضين في دروب النور، لينرن الطريق لأبنائهن كي لا يقتسموا الشقاء.

- (نجلاء) ترى (سونيا) وهي تتنقل بين الحجرات بملابسها الداخلية بحثًا عن دبابيس شعر بعد نضوب معينهن، فبان لها قوامًا ممشوقًا، تعرجاته متقنة معلنةً عن أنوثتها في عفويةٍ فنظرت إليها في اشتهاء سافر، ولمحتها بطرف عينها فدخلت حجرتها ومنها إلى الحمام، فدخلت إليها بالحمام، فهمت بالصياح، فوضعت يدها على فمها هامسة بأن لا تفعل، ضمتها عنوة، وأبدت تعطشها بقبلاتٍ حميمية، فقالت (سونيا): ابتعدي عنّي.
- (نجلاء) في لهفةٍ تقول: تعالي مرةً واحدةً وستعافين الرجال بعدها.
- (سونيا) مازالت متحفزةً تقول: ابتعدي عنّي وإلا صرخت وأفضحك.
- (نجلاء) متوسلة: مرةً واحدةً وأنت من ستأتين إليَّ فيما بعد.

خرجت معها لتجرب، فكانت بكرا في يد مجربة، أجادت فتح مغاليقها وعلّمتها المبادلة لتتحقق لهما المتعة الكاملة

بانتفاض جسديهما حتى شعرتا معًا بتمام الارتواء بعد طول ظمأ.

في قاعة تعلم المهارات اصطففن بين المدربات، تتعلمن الأشغال اليدوية ما بين أفلامٍ قصيرةٍ لتظهر لهن الشكل النهائي وما بين التعلم العملي والذي تؤتى ثماره بين أيديهن في الحال، فلاقى الاستحسان بين أغلبهن، فظهرت المفارش بأشكالها الرائعة وملابس النوم، وصناعة الحلوى، ومختلف الأطعمة، المدربات (علياء) و(إيمان) و(زينب) كنَّ يحثهن على الجدية والاستمرار، وقفن يتلون الجديد:

- (إيمان): قطعنا معًا شوطًا وأحرزن تقدمًا ملحوظًا فاق توقعاتنا.
- (علياء): وهذا يمدنا بالتفاؤل والرغبة في الاستزادة.
- (زينب): لذا وجب علينا مكافأتكن.

العيون شاخصة، جاحظة، ملتمعة، والنفوس بطبيعتها تواقة للجائزة مهما كانت بسيطة.

- (إيمان): لدينا معرضٌ دائمٌ، وآخر سنوي متنقلٌ في أغلب المحافظات.
- (علياء): من تحب أن تشارك فلتتفضل وسنساعدها بكلّ ما تحتاج.
- (زينب): الماكينات والأجهزة والخامات التي تحتاجين إليها سنوفرها لكِ، وسوف نأخذ منتجاتكِ لنبيعها في معارضنا، وثمنها خالصٌ لكِ، فقط نأخذ (١٥) بالمائة رسومًا ونفقات.

- (علياء): طوال هذا العام نحن ملتزمون تجاهكِ بإيجاد كلّ ما تحتاجين إليه لإنفاذ مشروعكِ.
- (إيمان): تستطيعين بعد هذا العام أن تجمعي المال وتشتري الماكينات الخاصة بكِ، بالنقد أو بالتقسيط.
- (زينب): وإن تعسر عليكِ شراءُ معداتٍ تخصكِ، فلدينا ورش عملٍ بها كافة الإمكانيات التي تتيح لكِ أن تعملي بها وتبيعي المنتج ولكن لنا نسبة في الربح، أنت تحصلين على ستين بالمائة ونحن الأربعين الباقية.
- (علياء): في كلّ الأحوال ستخرجنٍ من هنا إلى بيوتٍ مستقلةٍ وعملٍ دائمٍ يدر عليكن دخلًا، ودائمًا سنذلل لكِ الصعاب، وكلّما أتقّنت شيئًا ما ورغبتِ في الانتقال لما هو أعلى زدناكِ، وكلّه يعود عليكِ بالنفع.
- (إيمان): وسنستمع لمقترحاتكن مهما كانت، وندرسها وسننفذها إن شاء الله، فلن يوجد مستحيل.

انتهت جلسة تعلم المهارات، وفرغن إلى خصوصياتهن بعد أن أمّتهن الدكتورة (سندس) في صلاة العشاء، وجلسة لمدة نصف ساعة للاستماع لاستفساراتهن، منهن من تستزيد خاصة الكبيرات بالسن، ومنهن من تنصرف إلى شأنها، قبل النوم في العاشرة.

المقدم (حنان) طلبت اجتماعًا طارئًا مع المشرفة (سمر) والمشرفة (هند) والدكتورة (ابتسام) والدكتورة (سندس) لأمرٍ هامٍ في غرفة الأمن، فاستجبن وجلسن معًا حول مائدةٍ

مستديرة، فقالت المقدم (حنان) بإيجازٍ ما حدث بين (نجلاء) و(سونيا).

الصمت خيّم عليهن وشعرن بخيبة أمل، ولكن سرعان ما

- قالت الدكتورة (ابتسام): نسبة الخطأ واردة، النجاح بنسبة مائة بالمائة خدعة، نفوسنا ليست خطوطًا مستقيمةً وإنّما متعرجة وكثيرة الالتواء، وظهور مثل هذه السلوكيات جيدٌ لنا، لأنّه كاشفٌ عن مواطن الضعف ودلالة على أنّنا أخفقنا في شيءٍ ما.
- الدكتورة (سندس): هناك شيءٌ ما مازال عالقًا بنفسّي (نجلاء) و(سونيا)، وهذا الفعل دالٌ وينبهنا لهن جميعًا، إنّهن ما زلن ضعيفاتٍ وبحاجةٍ إلى المزيد من الاحتواء.
- المقدم (حنان): (نجلاء) و(سونيا) في نظر القانون مذنبتان واجبٌ عليهما قضاء العقوبة كما أنّهما خطرٌ على الباقيات.
- الدكتورة (ابتسام): كلهن (نجلاء) و(سونيا) بدرجاتٍ متفاوتة، كلّهن ضعيفاتٌ لم يبلغن مرحلة التعافي التام والتي بها وجب الاعتماد الكلي على أنفسهن، بمعنى أن نعطي الحرية الكاملة لكلٍ منهن وتخرج إلى المجتمع تعيش وتواجهه بكلِّ مكوناته.
- المقدم (حنان): في رأيكِ ما هو الإجراء الواجب اتخاذه؟
- الدكتورة (ابتسام): اجتماع لهن ونعرض عليهن ما حدث.

- (سمر): ألا يعد هذا فضح سرهن؟
- الدكتورة (ابتسام): كلّا، هذا الكشف لهن جميًعا، ليعلمن أننا لن نسمح بتجاوز ما، وليعلمن أن القصر بالكامل مراقبٌ بكاميراتٍ خفيّة، وكي نربّي فيهن الخجل من الفضيحة وارتكاب الفاحشة.
- الدكتورة (سندس): لي رأيٌ مغاير، الإعلان عن أنّ القصر به كاميرات خفية جيدٌ وداعمٌ لنا، لكن فضح (نجلاء) و(سونيا) قد يسبب انتكاسةً ونتيجةً عكسية.
- (هند): أنا مع هذا الرأي كي لا يشيع أمرهما ويجعل الأخريات يتجرأن بفعل أشياءٍ أخرى قد لا تخطر لنا ببال، كما أنّ هذا الفضح يفقدهن الثقة فينا مما يهدم كلّ ما نبذله من جهد.
- الدكتورة (سندس) تقول: ما رأيك يا (ابتسام)؟
- الدكتورة (ابتسام): لا بأس، فلنجعل الأمر قاصرًا عليهما، ولكن ما تغفلن عنه هو أننا لن نستطيع اتخاذ إجراءٍ ما معهما حتى لا يثير تساؤل الأخريات.
- الدكتورة (سندس): سنعمل لهما جلساتٍ منفردةً لمعالجة هذا الفعل، فما بُذل من مجهودٍ في الفترة القصيرة الماضية لم يؤثر فيهما، ودعونا نفترض أن الأخريات بدأن في التعافي.
- (سمر): أعتقد أنّ الكسب المالي الخاص لكلٍ منهن، واستشعار كلٍ منهن بذاتها وقيمة الكسب الحلال سيدعمنا بالدفع بهن إلى دروب النور في كلّ شيء.

- المقدم (حنان): عدم أخذ أية إجراءات قانونية سيكون على مسئوليتكن.
- الدكتورة (ابتسام): لا بأس، هؤلاء مرضى ونحن معالجات لهن.

بعد انتهاء برنامج اليوم التالي انفردت الدكتورة (سندس) والمشرفة (هند) ب(نجلاء) و(سونيا) في حجرة المكتب في الطابق الأوّل بالقصر، بدا في أعينهما التساؤل الصامت بينما الخوف يعبث بداخليهما وبدا عليهما اضطرابٌ من نوعٍ ما، من نظراتٍ متقطعةٍ إلى هز القدم إلى العبث بالأصابع التي تتشابك حينًا وتنساب حينًا آخر لتعبث بالذقن مع الهروب بالنظر إلى سقف الحجرة.

جلست كلًا من الدكتورة (سندس) و(هند) ترقبان معًا لغة الجسد في صمت، فاخترقت الدكتورة (سندس) فضاء الصمت المسدل عليهن وسألتهن لتختبرهن لأن الصدق سيكون له دلالة والكذب له دلالة أخرى فقالت: هل فعلتما معًا شيئًا ما مُجرَمًا ومُحرَمًا هنا بالقصر بالأمس بعد انتهاء اليوم؟

نظرا لبعضهما باضطرابٍ وبدت الأحرف متلعثمة على لسان (سونيا) بينما (نجلاء) بدت راسخة الأعطاف التي أدركت أنّهما كُشِفَ سترهما، إما من خلال وشاية أو بكاميرا مراقبة، فقالت غير عابئة للدكتورة (سندس): هات ما عندكِ يا دكتورة.

- وقالت (سونيا) التي استعر اضطرابها متجليًا في شفاهٍ مرتعشةٍ خشية ردّ الفعل، مثل الذهاب إلى

السجن وفقدان الحياة في هذا القصر بكل مميزاتها: عن أيّ فعلٍ تتحدثين؟

- **الدكتورة (سندس): لم تجيبا على سؤالي.**
- **(سونيا) مازالت تدفع الاتهام فتقول: لم نفعل شيئًا، فقط المنطقة السفلى في ظهري كانت تؤلمني فطلبت منها أن تدلكها لي كي يزول الألم فاستجابت.**
- **الدكتورة (سندس): ما رأيك في ذلك يا نجلاء؟**
- **(نجلاء) بتحدٍ تقول: بل كنا معًا زوجين، أراحتني وأرحتها، لسنا كلاب خشب، لنا احتياجات كما لكنّ احتياجات تلبينها مع أزواجكن.**
- **الدكتورة (سندس): ولو لم يكن لنا أزواج كنا سنفعل مثلك؟**
- **(نجلاء): أصابعكِ ليست مثل بعضها.**

الدكتورة (سندس): القصر كلّه مراقبٌ بالكاميرات، وهذا إنذار لكما، حدوث مثل هذا الفعل مرةً أخرى سيضطرني لنقلكما إلى السجن وأخذ أبنائكن منكن لأنكن ستصبحن غير صالحاتٍ كأمهات.

- **(هند): نهيب بكما ألّا تخبرا بقية الرفيقات طلبًا للستر أولًا وحرصًا على أبنائكن.**
- **(سونيا): ممكن مفتاح لحجرتي كي لا يدخلها أحدٌ مرةً أخرى.**
- **(هند): لن تستطيع أيّ واحدة أن تفعل ذلك بعد أن أشعنا أن القصر مراقبٌ بالكاميرات.**

- الدكتورة (سندس): المقدم (حنان) كانت ترغب في تقديمكما للقضاء كي يبتّ في أمركما ونحن هنا من طلبنا إعطاءكما فرصةً أخرى.
- (سونيا) التي جف حلقها تتنفس الصعداء وتقول: ربنا يخليكِ يا دكتورة، لن يحدث مرةً أخرى.
- الدكتورة (سندس): وأنتِ يا (نجلاء)؟
- (نجلاء) باستهانةٍ تقول: مرة وعدت يا دكتورة، هي ذلة؟
- الدكتورة (سندس): كلامي واضح، تفضلا.

(كوثر) تجلس أمام حمام السباحة تعلوها شمسٌ طريةٌ تتأهب لمغادرة سمائها إلى سماءٍ أخرى في الجانب المقابل من الأرض، كأنّها تطوف على سكان هذا الكوكب، ليس بالتساوي في الوقت والقدر ولكنّها مشيئة الله في تفاوت البشر في الأرزاق حتى في نصيبهم من شعاع الشمس.

تقلب (كوثر) عينيها في الأشجار المحيطة والزهور المتنوعة والأرض المعشوشبة، جادت

النسمة الهادئة عليها بروائح تلك الزروع لتنقلها إلى أعطافها لتنتشر فيها، لتتلقى دروسًا مجانيةً في الجمال الذي يحيل النفوس الصحراوية إلى دوحةٍ ندية.

نعم، تبدلت الصحراء القاحلة داخل (كوثر) إلى جنانٍ أورثتها سكونًا ونبتًا من الطمأنينة، فهي الآن ليست مطالبةً أن تنتظر من يطرق بابها، يكتريها لتحشد إمكانياتها للإغارة على سيدةٍ أو أكثر فتوجع إحداهن لأسبابٍ ما، وتقبض بيدها على ما يؤمّن حياتها ليومٍ أو بعض يومٍ وربّما بضعة أيام، حسب

المطلوب وحسب إمكانيات العميل المادية، منهم المتيسر ومنهم الثري ولكلٍ مطلبه، أمّا جيشها مكونٌ من جسدٍ متين البنيانِ وملامحَ قاسيةٍ قدت قسوتها من قسوة الأيام، وعيون تُجحِظُها وقت الحاجة، ودربة مكّنتها بمعرفة نقطة البداية التي منها تنقض على فريستها، وهي مضطرةٌ لأن يكون جيشها دائمًا على أهبة الاستعداد.

تصلبت حدقتاها وغاب عنها مشهد القصر بأكمله وحضر مشهد ذهابها مع عمها لزيارة والدها بالسجن وهي في العاشرة من عمرها، جموع الزائرين من حولها من كلّ الأعمار، وأبوها وعمها في حوار عن حال السوق وما الذي ارتفع سعره، وما هو ثابت وعن مشاريعه التي ينوي فعلها عند خروجه بعد عامين، لم يكن يهتم بالحديث معها والسؤال عن حالها والانشغال بها كما انشغاله بتجارته التي يديرها من السجن، وبعد خروجه بأيام مات مقتولًا في سجالٍ بالسيوف مع غريمه في التجارة، ثم تمضي حياتها في صراعٍ مستمرٍ لا يهدأ ولا يتوقف، أما الآن فهي في استراحة محاربٍ، عادت لتتدارك هذا اليقين، هنا في القصر كلّ شيءٍ منظمٌ ومُعدٌ له سلفًا وهي ليست بحاجةٍ لأن تصارع كالثيران لكي تعيش، تتنفس الصعداء كأنّها تلفظ ما تبقى من أدرانٍ علقت بداخلها كي ترسو رحال الأمان الذي لم تتحصل عليه إلا لممًا.

يوم الجمعة في جلسة تعلم مجمل الآداب والسلوكيات، طلبن أصباغًا للشعر وإكسسوارات ومساحيق تجميل وعطورًا وبعض الملابس على تنوعها، فوعدت المشرفات بتلبية

طلباتهن خلال هذا الأسبوع، ثم باغتتهن (سمر) بسؤالٍ دالٍ بعد شهرٍ في القصر: أيّهما أفضل حياتكن الجديدة أم الوضع السابق؟

اتفقن جميعًا على أن هذه الحياة أفضل وأنّهن أصبحن يشعرن بالأمان وعدم الخوف من المستقبل وهذا ما كان يطاردهن بصفةٍ دائمةٍ، فقط النظام الصارم والحياة المنضبطة بالساعة هي ما تؤرقهن، هذه الإجابة أثلجت صدر المتصدرات للعمل لأنّها الدليل المبدئي على النجاح.

استمر معهن الحوار المفتوح، فقالت الدكتورة (نرمين): ما رأيكن في مكافآتٍ أو ارتقاءٍ جديدٍ لمن يرغبن في فعل الاثنين أو الاكتفاء بواحدٍ فقط، أو عدم الرغبة في هذا أو ذاك لا بأس.

انسابت في الحديث عن فضائل قيام الليل وثوابه وتأثيره على حياة المسلم، أمّا الثانية فهي صيام نوافل لله، منها تدريبٌ لهن على الصيام ومنها حصول الفائدة المرجوة منه على كلّ المستويات، فاستجابت (فوزية) وابنتها (سلوى) وأحجمت الباقيات بأعذارٍ عدة.

الدكتورة (نرمين): لن نملّ في عرض المكافآت والتحفيز للفوز بها.

كلّ جديدٍ لم تألفه النفس ولم تعتده هو ثقيلٌ عليها، ونزع هؤلاء من فوضاهن أثقل على القائمات بأمرهن، خاصةً بعد فَعلةِ (سونيا) و(نجلاء)، يبدو أنّ الطريق غير معبّد، والخطورة ليست في ذلك بل الخطورة في اليأس من

إصلاحهن أو الاضطرار إلى اللجوء للعقوبة الجنائية مما قد يُحدِث انتكاسة للمذنبات.
لأوّل مرةٍ تتقهقر الأنا عند (سونيا) و(نجلاء) بعد التهديد بسحب أبنائهما منهما إن عادتا لتكرار إثمهما المبين، القصر مراقبٌ بالكاميرات وهو ما تم بثه عبر الإذاعة الداخلية، إجراءٌ احترازي من المقدم (جيهان)
كي تردع كلٌ منهن نفسها إذا أمرتها بالسوء حتى يعتدن السلوك القويم، ذلك الاحتواء الشامل جعلهن في صندوقٍ زجاجي شفافٍ مرئي وبالفعل جعلهن أكثر تحسبًا، حتى في أوقات السمر يهذبن نوعًا ما في سلوكهن، خاصةً بعد أن ألفن الحياة داخل القصر حتى ولو كان بأجلٍ معلوم، فلماذا لا يستمتعن بهذا الجمال والتمتع بمزاياه؟!

(٤)

قامت (فوزية) و(سلوى) لقيام الليل، وقفت الدكتورة (سندس) تعلمهن وتسرد لهن فضيلة هذه العبادة، وهذا التوفيق من الله لأنّها لا تُمنَح سوى للصادقين، وكلّ من يحب الاقتراب يُقرّب، كما أنّ عقاب المعصية، معصية أخرى أكبر، هذا الشحن المعنوي والنفسي الذي مارسته عليهما فتح مغاليق ما كانت تفتح من قبل، فأقبلتا بحبٍّ على هذه العبادة، عبادة الخواص، الخطو الأوّل تجاه هذه العتبة المُفضية إلى رواقٍ ذي رحيقٍ مختومٍ لا يستطيبه إلا من اقترب.

في هذا التوقيت كنّا منّ قبل يرتعن بين دنس الشراب ودنس التخفف من أحمال الجسد في مرج الخطيئة، ظنًا منهما أنه لا يعدل هذه المتع متعٌ أخرى، اقتناص قسري لمتعٍ زائفةٍ لا تلبث سوى دقائق يعقبها الشقاء وضيق الصدر بالساعات، كالذي يلهبه الشعور بالظمأ فيهرع إلى ماءٍ ظنًا منه أنّه عذبٌ فرات بينما هو ملحٌ أجاج، يروي ظمأه بظمأٍ جديد، الآن اهتديتا إلى العذب الفرات الذي لا ينقطع ريه، بين أولئك الذين يحملون مشعل الهداية.

(أمنية) ابنة (كوثر) كانت تساعد ابنيها (جودي) و(محمد) في ارتداء ملابسهما وتجهيز حقائبهما استعدادًا للذهاب إلى المدرسة، ثم نزلت معهما إلى البوابة انتظارًا للأتوبيس، وهذه من اللحظات السعيدة جدًا في حياتها.

ملابس ابنيها ذات جودةٍ عاليةٍ والمدرسة أيضًا ذات قيمةٍ وجودةٍ عالية، التعليم في مصر الآن موحد لكلّ الفئات، غابت

المدارس التغريبية والمتناقضة والتي كانت تنتج أشخاصًا كالكنتونات المعزولة، بهويات متقاطعة، وسلوكيات متناقضة، وحلّت مدارس بمناهج موحدة، تنتج إنسانًا نال قدرًا وفيرًا من التربية والتعليم الجيد، والبون شاسعٌ بين تخرج طالبٍ مؤهلٍ لدراسةٍ في كليةٍ ما وبين تخرج إنسانٍ متعلمٍ نال قسطًا وافرًا من المعرفة بأنواعها بغض النظر عن استكماله التعليم الجامعي أو اكتفائه بالمدرسة الثانوية، في النهاية هو إنسانٌ متعلم.

(أمنية) تقلبت بين حياتين متناقضتين وتعرف معنى التعليم الجيد والتربية السليمة، في الثامنة عشرة من عمرها بعد انتهاء امتحانها بالثانوية العامة، وكان جيلها ممن ذهبن إلى المدرسة الكثيرات منهن تعففن وكنَّ يرفضن مشاركة الجموع حفلات الشرب والاستسلام للرجال دون ضابط، فكانت واحدةً من هؤلاء، ولكن أنّى لها الستر والحماية في تلك الكنتونات المهترئة، فلا باب يُغلق فيحجب الرؤية ويمنع الذئاب المتربصين ولا أسر حقيقية تعتد ببناتها طبقًا للفطرة السليمة، فوجدت أحد الذئاب العارية يحيطها بذراعيه من الخلف بعد استسلام الجموع للنوم، همّت بالصراخ ولكنّه وضع يده على فمها بإحكام وسحبها رغمًا عنها إلى حيث يختلي بها وانقض عليها عنوةً رغم الجروح التي سببتها له بأظافرها أثناء المقاومة ورغم تشنجها وركلها له بقدميها فقد كان أقوى منها، أنهى نزاله الآثم والذي لن يحاسبه عليه أحد، فانصرفت باكيةً مخذولةً

تندب حظها التعيس، وفي الصباح قالت لأمّها ما حدث، فطأطأت رأسها صامتةً مهزومةً بينما هي الغارقة في البكاء الناقمة على كلّ شيءٍ فلا شيء يستحق الاعتداد به، كل ما كانت تطمح فيه بيتٌ آمنٌ يقيها شر الذئاب، ولكنّها تحولت إلى فريسةٍ جريحةٍ مكدرة الأعطاف، فقالت أمّها لجارةٍ لهم أن تبحث لها عن عملٍ معها حتى عثرت على عمل جليسة لمسنٍ متقاعدٍ يعيش وحده؛ تبقى عنده طوال أيام الأسبوع عدا يوم الجمعة.

في هذا البيت الكبير بالحي الراقي يعيش دكتور (أحمد) الذي كان يعمل بوزارة الخارجية وأُحِيل إلى المعاش منذ خمس سنوات وابناه يعيشان خارج مصر، المرة الأولى لها التي ترى بيتًا فخيمًا كهذا وتتجول فيه بل وتعيش فيه.

تقدّم متكئًا على عصاه يرحب بها بأدبٍ جمٍ وسمت من تعود التعامل بمستوى معين يدعمه قوامٌ جميلٌ ووسامةٌ لم تغادره بكامل قوتها، فانبهرت به كما انبهرت ببيته، هي فقط تعد له الطعام وتعطيه أدويته في ميعادها، أمّا الشغالة فإنّها تأتي مرتين بالأسبوع لتنظيف البيت.

أظهرت هي من جانبها لياقةً وأدبًا بجانب ملابس لائقة على نحوٍ ما بينما هو كان يناديها دائمًا يا بنتي، تعرّف إليها وأين تسكن وفي أيّ سنةٍ دراسية، كانت بطاقة ترشيح التنسيق تشير إلى قبولها بمعهد خدمة اجتماعية، فسُر لذلك وشجّعها وأخبرها أنّه سيتكفل بمصروفاتها كاملة.

أجادت هي عملها وأغدق هو عليها في الإنفاق واشترت الثياب الفاخرة حتى استشعرت أنّها من سكان هذا الحي ولن

تقبل بأقل من هذا المستوى في المعيشة بعد الآن، ولكن حدث ما لم تحسب له حسابًا، نطفة الذئب أنبتت في أحشائها ليصبح هذا همًا جديدًا أوقف عقلها عن التفكير.
النفس تهدي الجوارح إلى ما علق بداخلها، وهي من نشأت في حظيرة الشيطان، فرأت من فنون ممارسة الجنس ما لا يخطر ببال، فاهتدت إلى مخططٍ شيطاني كأن تضع له المنوم في الشاي مساءً ثم تمارس هي معه ما استقته مسبقًا وكان لها ما أرادت حتى تنبه لفعلها الذي أمتعه، فاستطيب فعلها وهو من حُرِم منذ وفاة زوجته من ثلاث سنواتٍ خلت، بالإضافة إلى حداثة سنها وإجادتها التي أعادت إليه مفقودًا كان قد نسي التفكير به، فألفها كما ألفته وكيف لا وهي من أعادت للشيخ صباه.
حتى مرّ شهرٌ كانت هي حاملًا في الشهر الثالث، فأخبرته بحملها الذي تسبب فيه، فطمأنها بنبل الفرسان أنّه سيتزوجها، لم تصدّق نفسها، خرجت في الشرفة تنظر منها على بقية البيوت؛ كانت تود أن يعلو صوتها لتقول لهم الآن أنا جارةٌ لكم وصاحبة هذا البيت وزوجة هذا الرجل ذي الحيثية.
وتم لها ما أرادت، فأصبحت سيدة البيت، زوجة وأمًا ومنحها هذا الرجل اسمه لابنتها التي انجبتها ظنًا منه أنّها ابنته، وكانت تغدق على أسرتها
من ماله الوفير، ولم يبدِ ابناه حماسة لهذا الزواج وتحفظا في التعامل معها ولم يأمنا جانبها.

تطوف بالبيت تتأمله، تشعر بالفوز والانتقال إلى مصافٍ جديدة، الخروج من منتجع العشش إلى سكنى الحي الراقي، لها ولابنتها، حياة رغيدة، آمنة، مرقى لم تكن تتوقع أن تطاله يومًا ما، ولكنّ النفس القاحلة لا تُنبت الخير مهما كثرت سقياها، فهي كالفلا، لذا تظل تواقة لا تفتأ تبحث عمّا يروي ظمأها، لا تشبع حيث تتواشج المنح، فأنّى للشحيح أن يجود؟!

دكتور (علاء) الحاصل للتو على الدكتوراه، شابٌ وسيمٌ جمع كلّ ما يمكن أن يلفت انتباه الفتيات، فكن يتحدثن عنه بانبهارٍ وكانت هي واحدةً من المبهورات به ولكنّها تكتمت أمرها ولم تبدِ لهن ما أسرّته بنفسها، فبدأت بنسج شباكها حوله وهي الحسناء بالمظهر الفخيم فوقع في شباكها سريعا، وامتدت بينهما الأحاديث عبر الهاتف بالساعات، ثم تعمدت الخلوة التي هيّأت لها الأسباب، فأفسحت الرواق للقبلات الحميمة شيئًا فشيئًا حتى بلغت معه العلاقة الكاملة وهي تذرف الدموع الكاذبة بين يديه على شبابها الذي دُفِنَ مع رجلٍ مسنٍ وأنّ والديها هما من أجبراها على هذا الزواج لأنّه يغدق بالإنفاق على أسرتها.

سنتان تنهل من العسل المصفى، أموال زوجها وجسد حبيبها وهي من عُدِمَت الوفاء لهذا أو ذاك، حتى سألت حبيبها المحتمل لو طُلِقَت من زوجها هل سيتزوجها؟

بقدر ما في السؤال من سذاجة، بقدر ما فيه من افتئات على الطبيعة، فقال لها:

- لا أرى داعٍ لذلك.

- فقالت: ألست تحبني؟
- تلعثم وهو يقول: بالتأكيد.

كانت تنظر إليه بعيونٍ ميكروسكوبية لتستبين داخله، بينما هو يراوغ كالثعلب.

- فقالت: إذن ما المانع في أن نتزوج؟
- مازال يتلعثم وهو يقول: الزواج شيءٌ آخر، يحتاج إلى تكاليفَ ماديةٍ باهظة.
- قالت واليأس يقبض على قلبها: سوف أعطيك كلّ ما سأتحصل عليه من زوجي.
- قال بإصرارٍ: أنا غير مستعدٍ للزواج الآن بالمرة.

مضت بخطى بطيئةٍ عدمت الحماس والتطلع إلى تحقيق الحلم.

حتى كان ابن زوجها وزوجته عنده وهو المرتاب في أمرها، مدّ يده إلى هاتفها خلسة وفي غفلة منها، واكتشف ما خفي عن أبيه وبالبحث اليسير اكتشف علاقتها بأستاذها، وحضر ابنه الثاني وأسرته وأجمعوا على ضرورة أن يجري تحليل الشفرة الوراثية لابنته ليعرفوا إن كانت هي ابنته أم لا.

فكان الخبر الصاعقة وواجهها بما عرف، فعلا صوتها لتبرّئ نفسها، بينما ابناه اللذان تصدا لها قالا لها: لا تحاولي وتظني أنّكِ من ستفعل ما تشاء وقتما تشاء، نبت سيئ جاب حياتنا، ظننت أنّكِ الحاذقة التي تغافلنا وتمكر بنا ونحن جميعا تغشانا إثمكِ، ستوقعين على هذه الورقة التي تفيد بأنّكِ حصلت على حقوقك كاملة وإلا سيرفع والدي عليك

قضية دعارة وسنفرغ مكالماتك لنثبت بها علاقتك بعشيقك وتدخلي السجن.
ألجمتها المفاجأة وعادت بابنتها إلى عشتهم بخفي حنين.

(٥)

جاءت (سعاد) بحقائب ملابس وأحذية ومستحضرات تجميل وعطور، تحلّقن حولها كي تحصل كلٌ منهن على مطلوبها، وازدحم فضاؤهن بأصواتهن ما بين هسيسٍ كهسيس الشجر وبين عبارات الفرح من الصغيرات، وآثرت القائمات على رعايتهن أن تجُدن بالكثير لإشباع رغبة التجمل لديهن، فامتنن لفعلهن وكان له التأثير الإيجابي عليهن وعلت عبارات الشكر على ألسنتهن وازددن يقينا بصدق النية بالرعاية الكاملة حتى في أدق التفاصيل.

الجمال يخترق أقسى القلوب ويتربع على عرشها، وهُنَّ الآن محاطاتٌ بكلّ أنواع الجمال،

جمال القصر، وجمال الحياة الجديدة التي أرست سدولها عليهن، فبدت في الوجوه سمتها ونضارتها، وترجم السلوك تهذيبها، وعبئ فضاؤهن بمفرداتها، كأنّهن في فسطاطٍ مصممٍ لهن، وانتفت بينهن كلّ أنواع الجريمة التي كانت المشرِّفات تتحسب لها، فقد شبعت البطون والعيون والنفوس، ولم يبق عليهن سوى اللمم الواجب إزاحته حتى تمام النقاء.

تلك الكيانات التي كانت في السابق مهيضة، مستعبدة، مستخدمة لصالح آخرين دومًا، ترتع عن تقصدٍ في فوضى وبوهيمية، هذه النفوس شُغِلَت بالحق، فلم يشغلن بالباطل.

(نوسة العمشة) واحدةٌ من سكان العشش، في العقد السابع من عمرها، ضليعة في سرقة الأطفال، تتحين الفرص لسرقة

طفل، كلّما كان صغيرًا كان أفضل بالنسبة إليها، تحمله وتجلس تستعطف المارة، تتسول به حتى يكبر ويصبح في السادسة من عمره، يسرح بالليمون في المواقف، يطارد المارة ليبيعه وللتسول أكثر من البيع، حتى إذا بلغ الطفل اثنتي عشرة سنة أصبح مسئولًا عن نفسه، فقط توفر له المأوى في نهاية اليوم في عشتها مقابل نصف ما يجمعه، فإن لم يكن حاذقًا ويخفي حقيقة ما تحصّل عليه فإنّها بالفعل تأخذ منه نصف مكسبه.

كانت تحتفظ بأموالها في صندوقٍ خشبيٍ كبيرٍ أسفل كنبةٍ متسخةٍ مهترئةٍ مكسرة القوائم وتواري الصندوق بقشٍ وأكياس رمل للتمويه. (نور) واحدٌ من خريجي عشة (نوسة العمشة)، عمره خمس وعشرون سنة، يعمل في جراج سيارات ويعلم مكان صندوق المال، كثيرًا ما حلم به، كثيرًا ما دبر الخطط التي بها ينقض عليه، كثيرًا ما خطط لمشاريع تعيده إلى سيرته الأولى، سيرة والديه اللذين لا يعرفهما.

كان الأمر نصب عينيه لا يفتأ التفكير في تنفيذه حتى غافلها أثناء تجوالها نهارًا ودخل عبّأ محتويات صندوقها في جِوالٍ وضعه ضمن جِوالٍ أكبر يحتوي على فضلاتٍ وقمامةٍ بانت مكوناتها للغادين والرائحين وتظاهر بكونه ينظف عشته لتجديدها ثم خرج خائفًا يترقب، وهبط من الجبل إلى المجد الزاحف إليه.

مليون جنيه من صندوق (نوسة) كانت نواة مجده التليد، هو واحدٌ من الأطفال الذين سرقتهم قديمًا، كان عمره سنة عندما غافلت أمّه وأخذته منها، الآن قُدَّ من الشقاء الذي نشأ فيه

وبكلّ الحرمان الذي استقاه من نبعها، انقض على مليونها الذي كان يندي نفسها القاحلة ويسر عينيها المصابة بالرمد عندما كانت تتحسس العملات بيديها فتميز الفضية والورقية.
لما عادت واكتشفت صندوقها الخاوي صرخت كالمجنونة غير مصدقةٍ ما حدث لها، ولطمت خديها، جفَّ حلقها وتجرعت مرارة الفقد وحدها وأُصِيبَت بآلام مبرحةٍ في صدرها أسكنت صراخها وما أسكنت صدمتها ألتي نالت من سلامة قلبها المترع بالحزن الضافي، فتوقف عن النبض مع شروق يومٍ جديد، إنّه الشروق الذي حمل أفولها بينما كان بزوغ نجمٍ ماجدٍ في عالم رجال الأعمال آخذًا في الصعود بقوةٍ كان يقبض على مليونها كأنّه حقه الذي رُدَّ إليه بعد أن تأكّد له أنّه واحدٌ من الأطفال المخطوفين وإن كانت تنكر ذلك لذا هو لا يشعر بالتجني عليها، احتشد وتأهب داخله بضرورة أن يضع قدمه على الطريق، التعليم بأنواعه، الدراسة التي تقتلعه من الحضيض إلى الثريا مع العمل.
الإلحاح في طلب الشيء سببٌ رئيسيٌ في نواله وهو لا يكف عن الإلحاح؛ فانطلق بسرعة الصاروخ، والمال يغشي العيون ويجلب كلّ مفقود، رأسمالية المجتمع لا تعرف سوى لغة المال، به تعلّم، وبه عمل نواةً أو مشروعًا سرعان ما كبر وجلب ما هو أكبر.
اتسعت خلية النحل وبدأت منتجات نزلاء القصر في الظهور، مختلف أنواع شغل الإبرة وبعض الملابس، بإتقانٍ فريد، وعمل وجباتٍ جاهزة ومختلف أنواع المخبوزات والأطعمة التي بِيعَت في المعرض الدائم للأسر المنتجة وتم حفظ

الأموال الخاصة بكلٍ منهن في الأمانات لحين الانتقال إلى بيتوهن الخاصة، مما شجّعهن على الاستمرار والاحتراف، الوقوف على أرضٍ صلبةٍ يعني مزيدًا من الأمان وانتفاء للخوف من المجهول.

تحقيق الذات بعملٍ شيءٍ ما مفيد على كلّ المستويات رطّب داخلهن ورتق فتوقًا ما كان لها أن تلتئم يومًا ما؛ فقد كان ترسّب داخلهن كلّ انطباعٍ سيئٍ وصورةٍ مشوهةٍ تمامًا لذواتهن المسحوقة.

الآن تميزت الكثيرات بمهارةٍ وتفردٍ في حرفتها فأصبحن مطلوباتٍ بالاسم، والذي كان يكتب على منتج أيّ واحدةٍ منهن كي تستمع إلى عبارات الإطراء والثناء بنفسها وأنّها من الممكن أن تكون سيدة مجتمعٍ من الطراز الأوّل لو أرادت، والماضي الذي يخفن من مطاردته، على كلٍ منهن أن تفتخر بنفسها، لأنّهن كنَّ في مرج الفتنة بكلِّ أنواعها وهُنَّ من قيّدن جنوحهن تجاه مطلوب النفس الأمّارة بالسوء، هكذا قالت القائمات على شئونهن بالقصر، وأضافت

- الدكتورة (ابتسام): الآن واجبٌ عليكن أن تفخرن بأنفسكن،

العميلات أصبحن يطلبنكن بالاسم وهذا دليلٌ على التجويد والرغبة الحقيقية في التغيير، لذا فإنّنا سنسمح بجديدٍ قبل انتهاء العام.

العيون شاخصة، والأعناق مشرئبة، والنفوس تتوق لمعرفة الجديد، فنسجن معًا نسيجًا من الصمت المطبق لسماع المرقى الجديد.

- (هند): منتجاتكن سوف تأتين بأنفسكن لتبعنها للعميلات بمنافذ البيع المعدة لذلك، وهذا يتطلب منكن مراقبة سلوككن مع العميلات، بمعنى أن تظهري بمظهرٍ لائقٍ يليق بكِ أنتِ.

تسأل إحداهنّ: بمعنى؟

- (سمر): بكلِّ المعاني في طريقة التعامل، في المفردات التي تلازمكِ، والإيماءة، والمظهر طبعًا.
- الدكتورة (أسماء): البعد عن التكلف والافتعال، بل البساطة والاعتدال هما ما يجعلانكِ في القمة.
- (سمر) و(هند) معًا: سوف نكون معكن وسنراقبكن لنقيّم مجهودنا معكن، وسوف يكون هناك مفاجآت لمن تتميز.

الترغيب والترهيب غريزةٌ إنسانيةٌ حتمًا تؤتي ثمارها، الخروج للتعامل المباشر مع الناس هو دربةٌ مقصودةٌ من الإدارة للارتقاء بهن بالتدريج.

ارتدت النزيلات ملابس من صنعهن، بها من البساطة والجمال ما لا تخطئه العين، انسابت الملابس على القدود السمهرية للصغيرات، وعالجت من هن أكبر في السن عيوب أجسادهن بملابس تناسبهن مع تناسق الألوان واللاتي أجدن فيها من خلال النظر إلى مكونات الطبيعة التي خلقها الله، المبدع الأوّل، بعض الشابات رفضن الحجاب، فاستجابت لهن المشرفات على ألا تبالغن في السفور والتعري.

جلست كلٌ منهن خلف منضدةٍ تعرض عليها منتوجاتها فأقبلت الشاريات عليها وقبل المغرب كنَّ قد بعنها كلّها،

وقمن بتسجيل طلباتٍ جديدةٍ منهن، فأوقدن شموع الحماس الجارف لديهن وعدن في نهاية اليوم وحافظات نقودهن ممتلئة، ممنونات يحتويهن فسطاط الأمل والإقبال على الحياة، وقالت لهن المشرفات من ترغب بالاحتفاظ بمالها معها لا بأس ومن ترغب أن نحفظه لها بالأمانات لا بأس.
فآثرن أن يُحفظ بالأمانات، وقالت إحداهن: إنّنا بحاجة إلى النزول لشراء الخامات بأنفسنا.

- (هند): لا بأس، سنحدد يومًا نخرج فيه معكن لشراء الخامات، ونحذر من التخلف والهروب، هنا ستصبح مجرمةً من تفعل وستطاردها الشرطة وتدخل السجن ولن تعود إلى هنا.

فقلن معًا في حماسٍ حقيقي: بعد أن ذقنا طعم الأمان والنظافة والحياة الطبيعية نهرب لنعيش في بركة المجاري...كيف؟!
نقول ذلك للتذكرة؛ ربّما لعب الشيطان برأس إحداكن.
بالفعل كنَّ إيجابياتٍ في منفذ البيع وتركن انطباعًا جيدًا عند الكلّ خاصةً المشرفات اللاتي قمن برصد درجاتٍ لكلٍ منهن والتي تدرجت من المائة بالمائة حتى الستين بالمائة، واحتفظن بها ولم تبحن بها لهن، وألقين عليهن عبارات الثناء والشكر مع تذكير كلّ من عليها بعض الملاحظات بخطئها كي لا تفعله مرة أخرى.
لا يغيب عنهن المقارنة بين ما كنَّ عليه وبين ما أصبحن عليه الآن، كانت عيونهن تنظر إلى أخريات، لديهن كلّ شيء، أولادهن يحيون حياةً هانئة، يرتعون في مرابع الشبع

بأنواعه، من مقومات الحياة المؤمّنة وهنَّ محرومات من كلّ شيء، فتندفعن بكلّ عنفوان هذا الحرمان بالارتماء في حضن الخطيئة ينهلن من نبعها ظنًا منهن أنّ ذلك يعوضهن عن كلّ مفقود.

(نجلاء) وأختيها (أمنية) و(أماني)، تشاركن في السحاق، علمتهن (نجلاء)، أمّا مستصغر الشرر التي منه ابتدأن فعلهن جارتهن التي تماثل (نجلاء) في العمر، كانت حديثة العهد بالطبق الذي ينقل القنوات الفضائية وكان ناقلًا للأقمار كّلها دون حجب، ففاض بمحتواه النقال لكلّ ما تعافه النفوس النفيسة، فجلسن معًا يقلّبن القنوات بالريموت فنهلن من معين الشيطان الذي لا ينضب فدفعهن الفضول لرؤية فيلم للسحاقيات، في البداية اجتذبهن جرأة التعري والتناول فجلسن شاخصات الأبصار مشرئبات الأعناق، كأنّ على رؤوسهن الطير، مردن على المشاهدة ثم حاولن عبر المزاح التجربة حتى ألفن الفعل، حتى اللاتي تزوجن منهن كانت متعتهن الكبرى في السحاق.

خضعت ثلاثتهن للعلاج المكثف للاستبراء من هذه الآفة يرافق العلاج التأهيل النفسي والإرشاد الديني، يعزز هذا كلّه شراكتهن في التفصيل وصنع المفارش بأنواعها، وقد برعن في صناعتهن الجديدة والتي كانت لها وقعٌ إيجابي عليهن بعد أن أصبحت منتوجاتهن مطلوبةً من العميلات مما أكسبهن ثقةً بأنفسهن، ولأنّ صانع الجمال لا بدَّ أن يتمثله فإنّهن أجدن صنع ملابسهن الخاصة التي تناسب كلّ وقتٍ وكلّ مناسبةٍ لهن ولأبنائهن، يرافق ذاك أو يتوازى معه خلق

انطباعٍ إيجابي عنهن، فاستجبن طواعيةً لتعليمات المرشدات وتقليدً عميلاتهن غير الملموس، بدأن يتشربن ملامح البيئة الجديدة وانزاحت السابقة القاسية الغليظة في هدوء المهزوم الحامل لرايته البيضاء.

ومما ساعدهن تجاوز أزمة السحاق كان الخوف من الله الذي بُثَّ فيهن، ثم رغبتهن الأكيدة في أن يكن مثالًا وصورةً مشرفةً لأبنائهن اللائي رغبن في أن يكونوا صالحين لا تشوبهم أدران ماضيهن الأسيف.

(أماني) التي لم تتزوج أرادت أن تثبت لنفسها ومن حولها أنّها تستطيع أن تكون سيدة أعمالٍ وسيدة مجتمعٍ تتحدث بهدوءٍ عن صنعتها الجديدة

ونصائحها التي تسديها للسيدات كي ترتدي كلٌ منهن ما يناسبها حسب سنها وطبيعة جسمها، ورؤيتها لتحقيق المزيد من الجمال والراحة فيما ترتديه، كان هذا في حديثٍ مع أحد البرامج بالتليفزيون هي وأختيها، وكان هذا الحديث عن تقصدٍ من إدارة القصر لإلقاء المزيد من المسئولية عليهن بطريقةٍ ناعمةٍ ولكي يسعدن معهن بتجربتهن التي نجحت بالفعل.

بعد الظهور بالتليفزيون أمام أبنائهن ورفقائهن آثرن التجويد في كلِّ شيءٍ كي يحافظن على هذا المستوى الذي ينبغي أن يزيد ولا ينقص.

مازالت (أمنية) التي تقلبت بين النقيضين في فترةٍ ما تقبض على جديدها بكلّ قوتها، يومًا ما مُنِحَت حياةً مستقرةً وفرّطت فيها بغباءٍ وضيق رؤيةٍ فعادت لمستنقع العشش تندب حظها

الذي ستورثه لابنتها وابنها الذي حملت فيه ضمن مارثون نهاية السهرة بمجتمع العشش، تحيا بقصرٍ منيفٍ يحميها من الذئاب المحتملين حتى ولو كانت الإقامةً فيه بصفةٍ مؤقتةٍ فإن الذي سيخلفه سيكون مؤمّن الأعطاف أيضًا، الأمن بأنواعه هو ما يورث ويفرض سلوكياتٍ بعينها كأنّها منظومةٌ تفرض مقتضياتها على من يعيش بداخلها، لذا فلن تحيد عن هذا الماكيت المُعد.

رمضان على الأبواب، بدأن بالتجهيز لرمضان، فعلقن الزينات والفوانيس بحديقة القصر وأضفى ترقب رمضان نوعًا من البهجة عليهن

والتي زاد منها بهجة الأطفال، فاستغلت إدارة القصر رمضان كمناسبةٍ وكشعيرةٍ دينيةٍ لتحفيزهن وشحنهن بقول (سمر):

- كلّنا سوف نصوم ونجتهد في العبادة وسوف نجوّد جميعًا حتى من تخفق سنأخذ بيدها كي نحظى جميعًا بالمكافأة الإلهية ببلوغ رمضان والعتق من النار، وسوف نخرج من رمضان ونحن في ازدياد، سيغيرنا الله طالما غيرنا بإخلاصٍ ما بأنفسنا، الله يمنحنا الفرص من آنٍ لآخر كي نرتقي إلى مرقى جديد، أما مكافأتنا نحن فهي حاجة تحبونها كلّكم دون استثناء، فما هي...؟

تجهمت الوجوه وألغزت أمارات التكهن، فقالت الصغيرات: رحلة...؟

- فقالت (سمر): شيء شبيه.

- فقلن بشغف: قولي لنا ما هي؟
- (سمر): سنذهب إلى مسرح الفقراء الذي تحبون الفرجة عليه بالتليفزيون.

أصوات متناقضة تعبيرًا عن الفرح، من الزغاريد التي هي أولى أمارات التعبير عن الفرح منهن إلى صيحات فرح الأطفال والتصفيق.

- (سمر): دكتور (عبد الله يسري) مؤسس مسرح الفقراء ومديره هو من اقترح أن يكون عروضه الصباحية لنزلاء القصور طيلة أيام العيد، لديه قوائم بأسمائكم جميعًا وقد نظّم الأسماء التي ستحضر كلّ يوم، بمعنى أنه نظّم القوائم كي تحضروا جميعا للمسرح.

خفّت حدّة التوقيف بالقصر، بعد أن أصبح من الممكن الخروج والتعامل مع الناس بالبيع والشراء، والخروج للشارع بأمانٍ أكسبهن الثقة بأنفسهن وتطلعن إلى الأفق القريب الذي يحمل لهن الخير العميم، فعمّتهن طمأنينة وسكون، كأنّ نسماتٍ اخترقتهن محمّلة بهذه المعاني الجميلة التي حطّت رحالها في نفوسهن بعد أن حالفهن الحظ بالعيش الهنيء.

(ليندا) و(شرين) و(مروة)، أخوات اشتركن معًا فيما أجدن فيه؛ صنع أحذيةٍ وحقائبَ نسائيةٍ من الخامات الطبيعية كالجلود والكتان والخيش وتتطلعن معًا إلى الاشتراك في افتتاح مصنع صغيرٍ يخصهن حتى ولو كان حجرةً داخل بيوتهن المرتّقبة، بعد ازدياد الطلب على منتجهن.

مع حلول رمضان تحوّل القصر إلى خلية نحلٍ تعج بالأيدي العاملة، حتى كبيرات السن أجدن صناعة مخبوزاتٍ ومختلف أنواع الأطعمة، تلك الأجواء كانت مكنسةً لأدرانهن التي علقت بهن طيلة حياتهن، اكتشفن معها أنّ الحياة ممكنةٌ مع تمثلٍ العمل الجاد وبعض الالتزام الخلقي، الذي يضفي عليهن جمالًا من نوعٍ آخر يستشعرنه مع من يتعامل معهن، جمال الملامح سريعُ الذوبان أمّا جمال النفوس لا ينضب ولا يجف أبدًا، يلازم من يتمثله لآخر نفسٍ له بالحياة الدنيا، لا يوجد إنسانٌ قبيحُ الملامح، القبح هو قبح الداخل، إنّها النفوس والتي هي ماعون تفيض بما امتلأت به.

رائحة العجين والخبيز بأنواعه ممزوجة برائحة مختلف أنواع الطعام تعب فضاء القصر ويحملها الهواء إلى الأعطاف القريبة من القصر، الحركة هنا لا تهدأ، والعمل الجماعي يمتزج بالأصوات الجماعية ما بين تبادل الآراء والإرشادات والملاحظات من الكلّ للكلّ دون سباقٍ أو تنافسٍ بغيضٍ للفوز بمكانةٍ ما، فلكلٍ مكانه المعلوم، فانتفت الأحقادَ الملازمة للمحدودية، فلا فوات يخافونه، لذا فأيديهن تتشابك وتتعاضد للازدياد والترقي، وهو ما لم يعرفن مفرداته من قبل.

(٦)

أينعت ثمار تعب ثمانية أشهر دون كللٍ أو مللٍ من فريق عملٍ ديدنه حبّ العطاء والرغبة الحقيقية في الأخذ بأيديهن، فلم تذهب جهودهن سدى، إنّها المدينة الفاضلة اللاتي آمنّ بها، ازداد عدد الصوامات القوامات من كبار السن، فالسلوك معدي، سيئة وحميدة، والنفوس إذا ألفت الجمال أدمنته وسعت إليه.

استعدت النزيلات للذهاب بالحافلة لشراء الخامات حتى كبيرات السن واللاتي لن يشترين شيئًا صاحبنهن لرؤية الشارع والناس، وقفن ينتقين الخامات مدفوعات بحماس نعمة الكسب المادي والأمان الاقتصادي الذي كثيرًا ما كان يعصف بهن أحيانًا من قبل.

عُدن محملاتٍ بمشترياتهن وفي الحافلة علت الأصوات بالحديث عن خططٍ لأشياءٍ جديدةٍ ستقمن بتنفيذها، وعما سوف يفعلنه بعد الخروج من القصر وكيف سيكبر مشروع كلٍ منهن.

القصر تحوّل إلى خلية نحلٍ بعد أن زاد الإقبال على منتجاتهن فتوزعن في أرجائه حتى الحديقة، منهن من جلست بمفارشها التي تقوم على تنفيذها، واشتعل الحديث عن الحياة بعد الخروج من القصر.

(أميرة) بين يديها العجين تضعه بالفرن وتتابع نضجه بينما (سلوى) و(فوزية) و(كوثر) يقمن بتشكيله، انتظار (أميرة) لنضج العجين جعلها تفكر في

سنوات البراءة الأولى عندما كان عمرها أربعة عشر عامًا، أحبّت (حمدي) الذي كان عمره عشرين عامًا، كانوا جيرانًا في بيتٍ مهترئٍ بعاطفة، شقة بالطابق الأرضي مكونة من حجرتين كلّ حجرةٍ تسكنها عائلةٌ ما بين ثمانية وتسعة أفراد، والحمام الذين اقتطعوه من الردهة القصيرة والمسماة مجازًا بالصالة يشتركون فيه، وهناك مباراةٌ صباحية وأصواتٌ تعلو بتبادل السباب وأحيانًا تطاول الأيدي بسبب التأخر بالحمام، هذا البيت تجافيه أشعة الشمس، فإن أرادوا الفوز بأشعتها خرجوا من العاطفة إلى الحارة.

استحضرت (أميرة) دفقات الحبّ الأوّل والتي بها تطلعت إلى أفقٍ قريبٍ بحياةٍ طبيعيةٍ بالفوز بالحبيب بأقل الإمكانات وأبسطها، إنّها الأحلام التي سطروها معًا، كان جازمًا عندما قال لها: سنتزوج في بيتٍ مغلقٍ علينا وحدنا، لن نسكن كالقطيع مع آخرين كما نحن الآن، ستبقين ببيتكِ مُعززةً مُكرّمة.

- تقول بأسى: ما تتطلع إليه يحتاج أموالًا طائلة.
- (حمدي): لا تقلقي؛ الرزق يأتي على قدر صدق النية، سأبحث عن عقد عملٍ بإحدى دول الخليج.

كانت هي تبيع أشياءً بسيطةً بمترو السيدات لتساعد أسرتها، وانتظرت فارسها الذي قابلها فيما بعد محبطًا لأن أقل عقدٍ بحاجةٍ إلى خمسة عشر ألف جنيه، ثم يؤكد بإصرار عزمه على ما وعدها به، هو يعمل بورشة لتصنيع الأثاث.

حتى جاءها كمن عثر على كنزٍ وقال لها: أحد الأثرياء عرض عليَّ مبلغ مائة ألف جنيه مقابل أن أبيع له كليتي.

- قالت مستبشعة: تقطع من جسمك وتبيع يا حمدي؟!
- قال بيأس: وأنا حيلتي أيه غيره؟ ثم يقول بعيونٍ تلتمع بنور الأمل: مائة ألف جنيه، سوف أستأجر ورشة تخصني، وفي فترةٍ وجيزةٍ سنحصل على بيتٍ لنا وحدنا وسوف نتزوج فيه، بابنا سوف يكون مغلقًا علينا.

لم يقل لغيرها بما انتوى فعله، وقال لها أن تحفظ سره حتى لا يحسده الناس، هنا في العاطفة كلّهم يحسدون بعضهم البعض.

اختفى (حمدي) والأيام تتلو الأيام وآله يبحثون عنه ولم يجدوا له أثرًا، أبلغوا الشرطة وبحثوا بالمستشفيات ولا أثر يُذكر له، بعد اختفائه بأربعة أيام أباحت لهم بسره، سألوها عن اسم المستشفى الذي كان سيجري بها العملية فقالت إنها لا تعرف، فتناثر الحديث عن تجارة الأعضاء في مصر والذي غالبا هو ضحيتها.

حزنت عليه وطال حزنها لدرجة أنّها احتفظت ببعضه الآن رغم مرور كلّ هذه السنوات فلم تنس أنّه كان يقطع من جسمه ويبيع كي يحقق حلمهما.

تزوجت بعد اختفائه بأربع سنوات من (استورجي) وأنجبت بناتها الثلاث، سكنت بنفس الحارة في بيتٍ مهترئٍ سرعان ما استصدر صاحبه قرارًا بالإزالة فانتقلت للحياة في حارةٍ أخرى، توفى زوجها بغتة، تعلمت البنات رغم شظف العيش ولكنّهن اكتشفن أن هذه الشهادات لا قيمة لها ولا وزن خاصةً مع ازدياد الطلب على من حصل على دراسات خاصة

لمطلوب السوق الذي لا يرحم، حتى قالت إحداهن لابنتها الكبيرة على البيت الذي تعمل به، فقالت لها: أتاجر في لحمي؟

- فقالت لها: حيلتك غيره؟

ومع انسداد الأبواب، انسلت البنات واحدةً تلو الأخرى للعمل في نفس المهنة.

سحبتها (فوزية) من مرج الذكرى التي سقطت به، وطلبت منها أن تأخذ الجديد وتُخرِجَ الذي نضج من الفرن.

المشرفات يرقبنهن صامتات ثم يهمسن لبعضهن بالمرقى الجديد لزيادة معمار الثقة والأمان داخلهن، فدعتهن المشرفات إلى قاعة السينما بعد صلاة المغرب ليرين المفاجأة.

كان هذا في الصباح، فظللن يتكهن بالمفاجأة السعيدة، فتقول

- الصغيرات: "رحلة لقضاء بعض الأيام على البحر".

وتقول الكبيرات: الخروج إلى مكانٍ عامٍ كلّ أسبوع.

وحان الاجتماع بقاعة السينما، فاحتبسن الأنفاس توقًا واستعدادًا للمفاجأة.

أُزيح الستار عن الشاشة، بيوت تتكون من أربعة طوابق فقَط، منها ما هو شقةٌ واحدةٌ في الطابق، ومنها ما هو شقتان في الطابق الواحد، ومنها ما هو ثلاث شققٍ في الطابق الواحد، كلّ عائلةٍ كبيرةٍ في هذا البيت الشامل لأفرادها، على باب البيت من الخارج مكتوب اسم "بيت عائلة...." وكل ابن متزوج له شقة، بأقساطٍ تناسب دخلهم.

كلٌ منهن رأت البيت الكبير التي ستخرج لتعيش فيه وعليه اسم عائلتها، الشقة مائة وخمسين متر، فارتفعت الزغاريد والتصفيق، وفاضت فرحتهن خاصة عندما علمن أنّ أبناءهن الذكور سيلتئم الشمل بهم بعد انقطاعٍ لعام كامل.
ولمزيدٍ من التشويق قالت المشرفات اللاتي كنَّ مبتهجاتٍ لابتهاجهن، لم يتبق سوى فرش هذه البيوت.

- قالت (فوزية): ولو على البلاط، أربع حيطان ستر وغطاء، ثم بكت بشدةٍ وقالت: كم عرض لحمنا بالشوارع أحياء وأموات، كم مات منّا أناس لم يجدوا من يدفنهم، البيت يعني الستر، البيت نعمة كبيرة.
- قالت (سمر): أبناؤكن الذكور عملوا في مهنٍ كثيرة، مثلكن تمامًا، منهم من فُتِحَ لهم مصانع موبيليا، وغيرها، ومخابز ومتاجر، تضم أعدادًا غفيرة والذين جودوا ويبيعون منتجاتهم الآن.

فيلمٌ جديدٌ للمصانع التي يعمل بها أبناؤهن مرفقة بصورٍ حيةٍ لهم من داخل المصانع، فارتفعت الزغاريد ثم البكاء؛ غير مصدقات.

- (هند): سنقوم خلال هذا الأسبوع بزيارة المصنع لاختيار الموبيليا، والتي سيتحمل تكاليفها بعض رجال الأعمال مع الدولة التي ستتكفل بستين بالمائة من ثمنها.

مازالت الزغاريد تنطلق من حناجرهن لتعبر فضاء القصر إلى الصحراء المحيطة به.

مع المشرفات وبالحافلات إلى البيوت أولًا لتضع كلٌ منهن تصورها عن الموبيليا التي ترغب فيها، ثم إلى مصنع الموبيليا، انتشرن في أرجائه، منهن من التقت بابنها الذي لم تره منذ عام تقريبًا، فعانقته باكية، سعيدة كونه أصبح ذا شأنٍ وكونها التقته، أيام قلائل ويلتئم الشمل في البيت الكبير.

الآن تجمعن أشياءهن للانتقال إلى بيوتهن، متطلعات إلى الفوز بالبيت المستقل، خفّ أوار مغادرة القصر على نفوسهن، فالبيت الخاص يطيّب نفوسهن، الفطرة تعشق الخصوصية مهما كانت بسيطة ولكنّها تعني الذي يخص شخصًا ما وحده، الخصوصية تعني الحرية في ممارسة الحياة دون عينٍ رانية، تعني ممارسة الحبّ بكلّ أنواع الممارسة دون تطلع الآخرين، الخصوصية تعني الستر، مطلوب كلّ إنسان، لا شيء يعادل بيتًا معلومًا للفرد مهما كان بسيطًا ولا قيمة لقصرٍ فخيم لا يحظى فيه نفس الشخص بخصوصيته التي هي جزءٌ من احترام آدميته.

والكسب المادي تكأة تغنيهن عن انحراف البوصلة، ول(فوزية) و(كوثر) معاشٌ شهري لتعيشا منه، إنّها المدينة الفاضلة، منتجع العشش الذي خلا من أبسط مقومات الحياة الآدمية، اللهم حنوهم وشفقتهم على بعضهم البعض لعلمهم أنّهم يقتسمون البؤس والشقاء حتى يحين ميقات المبيت في القبر بدلًا من المبيت في عشةٍ بالصفيح، الآن أصبح منتجعًا صحيًا يعج بكلّ مفردات الحياة البهيجة، كلّ محتوياته قشيبة، تبدلت الأرض فأصبحت أخرى ممهدة، معبّدة، بمباني صحية

فسيحة ومدارس ومستشفيات ودور عبادة، وحدائق عامة ومصانع وورش ومنافذ بيع لكلّ منتجاتهم ومدارس وساحات شعبية ومنتديات، وأشجار، وأراض معشوشبة تحيط بالمباني الخرسانية، كأنّها تلطف من قسوتها لتمنحهم نسماتٍ رطيبةً ندية، ترطب داخلهم باستمرار لتحفظ عليهم إنسانيتهم بالفطرة التي خلقهم الله عليها، لترمم شقوقًا وترتق فتوقًا داخلهم ما كانوا يومًا ما يتوقعون أن تطيب جروحهم الغضة دائمًا.

(مروة) التي لم تتزوج ولم تستسلم لبوهيمية سكان العشش، كانت السبب مُدرِسَة التربية الدينية في الصف الثالث الابتدائي التي كانت تعلمهم الصلاة وتغرس فيهم عن تقصد القيم الدينية، كانت (مروة) من القلائل التي تستجيب، وظلّت على علاقتها بأبلة (فاطمة) حتى ذهبت إلى القصر فكانت خير معين لها على مجاهدة نفسها ومجاهدة حياة تسير عكس اتجاههم،

فكانت تذكرها بالصلاة والصيام وارتداء الحجاب وحفاظها على نفسها فلا يقربها كائنًا من كان، ومع ما في ذلك من مشقةٍ لكنّها استجابت ونجحت في البقاء عذراء، بكر الروح والجسد، كانت لا تخلع حجابها أبدًا وكانت ترتدي البنطال الجينز تحت تنورتها في صحوها ونومها، تتجهم لنظراتٍ مبدئيةٍ تستحثها لشيءٍ ما، تحملت ما يُقال عن حجابها وتزمتها وسياج السلك الشائك الذي تحيط نفسها به، رغم يأسها من أن يتقدم لها خاطب، فقد كانت لديها رفضٌ مطلق لهذه العلاقات الشائكة، ومثلها كثيراتٌ من جيلها ممن

تعلمن، منهن من تزوجت وعاشت حياةً بسيطةً لا تبلغ الكفاف ولكن يؤمّنها السلام الاجتماعي الناتج عن حياتها السوية داخل أسرةٍ شرعية.
عملت في مدرسةٍ ابتدائيةٍ وسعدت بهذا العمل الذي يُدِر عليها دخلًا شهريًا مهما كان بسيطًا فهو ليس إلّا مزيدًا من الأمن، (مروة) الآن داخل بيتٍ يدر عليها المزيد من الأمن الذي تصبو إليه، هي الوحيدة التي كانت تخرج إلى عملها بعد متابعتها فترةً طويلةً وتأكد إدارة القصر من استقامتها.
(شرين) ذات الابنة الواحدة التي كانت تتحسب لمستقبل ابنتها الغامض وتوريثها بنود الإثم والشقاء الذي ترتع فيه منذ نشأتها، شملها سياج الأمان وتبدلت معيشتها إلى الأفضل الذي خبرت مفرداته لتنقلها لابنتها التي تكبر أمام عينها.
أدركت النزيلات فقه الحياة النظيفة وتشربن سلوكها سريعًا، المرأة تسعى دومًا للأفضل، وهُنَّ من كنَّ يرقبن بألم نظرة الأخريات لهن، وكنّ يائساتٍ من تبدلها يومًا ما، لَذا كان العيش في الخطيئة وللخطيئة مدفوعات إليها اختيارًا أكثر منها جبرًا فليس في الإمكان أفضل مما كان، لكنّهن الآن أصبحن أفضل مما تطلعن إليه بخيالهن، يتنفسن الصعداء، يمشين واثقات الخطى، واثقات من كلّ شيءٍ حولهن أو لديهن، مجتمع العشش تحوّل إلى حي راقٍ جدًا يأتي إليه القاصدون لشراء منتجاتٍ عالية الجودة ليجدوا أن الحال تبدل وأنّ سكان هذا الحي أصبحوا على النقيض، وحديثهم عنهم يحمل تلك الانطباعات الجيدة.

أصبح التطلع للمستقبل والتخطيط الدائم له كأنّهم يعيشون أبد الدهر يتساوى مع الخوف من الله كأنّهم سيموتون غدًا، كلّ الأمهات ترنو إلى أطفالهن اللائي أنجبنهن رغمًا عنهن أو طواعية، أصبحن يشعرن بالأمان الرائق المتجدد، شغلهن بعملهن وترتيب الحياة لأبنائهن كي يفوزوا بأفضلها، والأفضل قرين التعلم بأنواعه دائمًا، وتمثل حياة منظمة هادفة تنحو نحو الهدف الأسمى الذي من أجله خلق الله (آدم)، لم يكن الالتفات لسكان العشش من قبيل الترف والفراغ، وإنّما كان عملية احتواء، عملية لسبعة ملايين من المعذبين في الأرض حسب إحصاء الدولة، بينما في حقيقة الأمر عددهم يزيد عن العشرة ملايين.

كان ميعاد ذهابهن لمسرح الفقراء ثاني أيام العيد، تأهبن لتلك المناسبة بكلّ ما من شأنه أن يظهرهن بمظهرٍ لائقٍ من حيث المظهر، والسلوك الذي أكدت عليه المشرفاتً، وبالفعل كنَّ كما ينبغي خاصةً الصغيرات المتعلمات اللاتي تأثرن بتعليمات المشرفات واللاتي رغبن في إظهار انطباع جيدٍ عنهن، السلوك ممارسةٌ وتعود.

الدكتور (عبد الله) كاتب ومخرج المسرحيات التي يعرضها، قبل العرض وقف على المسرح بدماثة خلق الفنان الحقيقي ومكنونه الزاخر بكلّ جميلٍ يرحب بالجمهور ويذكرهم بالقول: العرض سيبدأ، الصمت التام، ولا طعام، ولا شراب، ولا سجائر، المسرح هو جامعةٌ شعبيةٌ وأنا رجلٌ بسيط، أحب الارتباط والالتصاق بالعامة والبسطاء، الروايات التي تُعرض هي من لدن البسطاء وهمومهم، الالتزام بالتعليمات يعني

أنّكم تبادلونني الاحترام الذي أكنه لكم، ودون ذلك سيُعَرّض المخالف للحرمان من العرض، أرجو الالتزام لنقضي وقتًا لطيفًا تستمتعون بالمسرحية كما نسعد بوجودكم، تحياتي، ينحني ليحييهم وهم يصفقون.

عُدن مسروراتٍ يتبادلن الحديث حول المسرحية، أدركن أنّ الحياة الطبيعية الهادئة ممكنة، والوعود ليست خياليةً ولا وهمية بل حقيقية وفي متناول الأيدي، وامتد الحديث عن المستقبل الواعد الذي تتطلعن إليه.

الأطفال الصغار كانوا مكدرين لأنّهم سيغادرون القصر ولكنّ الأمهات ظللن في إيقاد شموع الحماس لديهم فقلن: سنذهب إلى بيتنا المؤسس بكلّ ما سنحتاج إليه، مثل كلّ زملائكم بالمدرسة، نذهب إلى أيّ مكانٍ ونعود لنستريح ببيتنا، والحدائق العامة منتشرة بين البيوت وبها الألعاب التي تحتاجون إليها، وسيكون لكم حجرة نومكم الخاصة، لكلٍ منكم سريرٌ ومكتبٌ وصيوانٌ للملابس، سوف نتعاون في تنظيف البيت.

حانت لحظة مغادرة القصر، كانت صعبةً مهما هوّنت المشرفات من الأمر بأنّ هذه القصور ستصبح منفعةً عامةً لجموع الشعب لأنّها ملكهم ولا يمكن أن نقصرها على فئةٍ بعينها دون غيرها بل العدل يقتضي اقتسام الاستفادة منها.

انتشرن داخل بيوتهن، يتبادلون الأحضان والقبلات مع أبنائهم الشباب والطليعة الذين لم يروهم خلال هذا العام، والذين كانوا محتجزين بقصورٍ أخرى.

(ليندا) تتجول داخل بيتها وابناها التوأم فَرِحَان بما آتاهم الله، ابناها مجهولا النسب بسبب الدعارة التيَ كانت تمتهنها في البداية ولم تحتط لنفسها بما فيه الكفاية، فحملت فيهما رغم محاولات الإجهاض ولكنّها فشلت، وساعدها عميلٌ في استخراج شهادتي ميلادٍ لهما باسم أبٍ وهمي، وهي من كانت تتحسب من السؤال عنه عندما يكبران، وكلّما رأت إحداهن تمشي بجانب زوجها ومعهما أبناؤهما أصابتها غصة، أو تلك التي تصطحب أبناءها إلى المدرسة صباحًا وتأتي في نهاية اليوم تأخذهم بسيارتها ويطلب منها أحدهم شيئًا ما فتقول له: لما نرجع البيت. الآن لابنيها بيتٌ كما كلّ الأطفال، مطلبٌ إنساني أولي، بيت، الطفل الصغير له مكانٌ مهيأ له، وأمّه ممتنة؛ فليس فقط البيت وإنّما عملٌ محترمٌ وأمّه سيدة مجتمع لا تقل عن الأخريات تشرفه أينما وُجِد.
يمرقون بين أركَان بيوتهم فرحين مهللين يمتلئ فضاؤهم بأصوات ومفردات السعادة ينثرونها لتفيض من النوافذ إلى الشارع، الأطفال يتفقدون حجراتهم، والكبار لا يقلون ابتهاجًا عن الصغار،
فقد خرج الطفل الكامن داخل كلٍ منهم، الإحساس بالأمان لا يعدله شعورٌ آخر، الأمان بكلِّ أنواعه، بيتٌ مؤسسٌ وعملٌ يدر عليهم دخلًا يكفيهم، ولم تنس السيدات على تنوع أعمارهن تذكر ما كنّ يستشعرنه في السابق، عند رؤية أخرى تماثلها في العمر، حياتها مؤمّنة وأبناؤها، لها بيتٌ وأسرةٌ شرعيةٌ وحياةٌ طبيعية، فتشعر بغصةٍ عندما تقارن نفسها بها وتعيد النظر فينقلب إليها نظرها حسيرًا إلّا من

فتات، فتات في كلّ شيء، تستحضرها الآن فتدرك أنّ ما بها من نعمةٍ فهي من الله، فإن أعادت الكرة بالنظر مرةً أخرى ينقلب إليها محُمّلًا بكلّ ما من شأنه أن يسعدها، بالأمس كانت سرابيلهم من الخوف المجلل بالهروب من المطاردة، حتى ولو كانت المطاردة هي نظرات الترفع والكبر من أفراد المجتمع تجاههم، الآن سرابيلهم الأمن الضافي وسلوكيات ومفردات قشيبة تعلمنها ممن يرقبون فيهم إلًا وكلّ ذمة.
الجبل بمنطقة العشش، تلك المنطقة التي كانت ناديهم الذين يأتين فيه بكلّ أنواع المنكرات لإشباع بوهيميتهم التي تفوق بوهيمية البهائم، تم وضع كلّ شيءٍ المادي والمعنوي في مكانه وميقاته فانتظم كلّ شيءٍ بالسليقة.

سيرة ذاتية

- الاسم: فاتن فاروق عبد المنعم.
- محل الميلاد والدراسة: بكالوريوس علوم - جامعة المنصورة.
- العمل: أخصائية وسائط تعليمية.
- عضو بالمجلس الرقابي الأعلى للاتحاد العالمي للمثقفين العرب.
- عضو اتحاد كتاب مصر منذ ٢٠٠٩.
- صدر لي ست روايات ومجموعة قصصية وهي على التوالي:
- . عن دار الفاروق للاستثمارات الثقافية:
- (القربان – عيون – بلا جذور – سمراء ٢٠٠٧ – ٢٠٠٨ – ٢٠٠٩)
- . عن دار العالم العربي للدراسات والنشر:
- (ولكن – صرح الأطلال ٢٠١٣)
- . عن دار يسطرون للطباعة والنشر:

- **(مجموعة قصصية بعنوان فقاعات صابون ٢٠١٨)**
- **نزلاء القصر (رواية) عن مؤسسة النيل والفرات للطبع والنشر والتوزيع (طبعة أولى – ٢٠٢٢ -)**
- **. كتاب لأنّه الإسلام - مؤسسة الشريف للكتاب ٢٠٢٠**
- **. دراسات نقدية لكلٍ من:**
- **(دكتور أحمد الباسوسي - كاتب وناقد)، (الأستاذ خالد جودة)،**
- **(دكتور نادر عبد الخالق).**
- **أكتب المقال بجريدة الأمة الإلكترونية ومنها إلى مواقع شتى.**
- **أكتب القصة القصيرة منشورة في عددٍ من المجلات والجرائد الإلكترونية منها موقع أنطولوجيا السرد العربي.**
- **لي صفحتا فيس بوك باسم فاتن فاروق عبد المنعم.**
- **لي صفحة خاصة بأعمالي بعنوان سرديات فاتن فاروق عبد المنعم.**